الزنبقة السوداء

المكتبة العالمية للفتيان والفتيات

دار العلم للملايين
بيروت

الزنبقة السوداء
دار العلم للملايين

هذه الرواية

- يقرّر اتحاد مزارعي الزنبق ، في مدينة هارلم ، بهولندا منح جائزة قدرها مئتا الف ليرة ذهبية لمن ينتج أول زنبقة سوداء ...
- وتبدأ المنافسة ، من أجل انتاج هذه الزنبقة السوداء ، بين مزارعين هما « كورنيليوس فان بيرل » و « بوكستل » .
- ويلجأ « بوكستل » الى مختلف الاساليب الدنيئة لسرقة بصلة الزنبقة السوداء من كورنيليوس .
- وخلال ذلك تقع أحداث مثيرة ، جعلت من هذه الرواية احدى اشهر الروايات في العالم .

المكتبة العالمية
للفتيان والفتيات

الزنبقة السوداء

تأليف
اسكندر دوما

تعريب وتلخيص
أكرم الرافعي

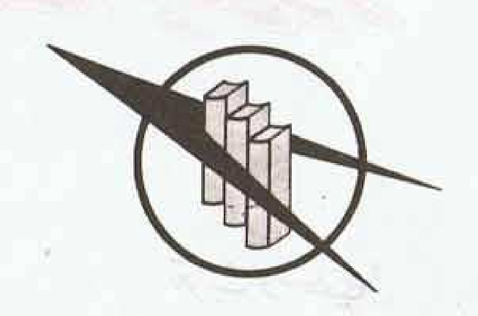
دار العلم للملايين
ص.ب ١٠٨٥ - بيروت
تلفون : ٢٢٤٥٠٢ - ٢٩١٠٢٧

دار العلم للملايين

مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع مار الياس - خلف ثكنة الحلو
ص.ب ١٠٨٥ - تلفون : ٣٠٤٤٤٥ - ٨١٦٦٣٩
برقيا : ملايين - تلكس : ٢٣١٦٦ ملايين

بيروت - لبنان



الطبعة الأولى ١٩٧٣

الطبعة العاشرة

حزيران (يونيو) ١٩٨٦

١ . عش ، يا بني

دُوْرْدْرَشْتْ مدينةٌ صغيرةٌ تقَعُ في الجزء الجنوبي من هولندا .

في عام ١٦٦٢ كانَتْ أهمّ أسرتين ، بين أسَرِ هذهِ المدينةِ ، هما أسرة « دي ويت » وأسرة « فان بيرل » . فقد كان كورنيل دي ويت وشقيقه جان يحكمانِ البلاد . أما آل فان بيرل فقد كانوا يعملونَ في التجارة ، ومن وراء التجارةِ جَمَعَ السيّد فان بيرل ، الأب ، مالاً كثيراً . وكانت تَربطُهُ صداقةٌ حَميْمَةٌ بكورنيل دي ويت .

كان شتاءُ ذلكَ العامِ قارسَ البَرد ، مما أثّرَ في صِحّةِ السيد فان بيرل ، فمرض . ولما طالَ عليه المرض دعا إليه ابنَهُ كورنيليوس ، وهو طبيبٌ شابٌ في العشرين من العُمر ، وقال له :

« كورنيليوس ! خلالَ حياتي جَمَعْتُ ثروةً كبيرة ،

ولم أصرفْ سوى القليلِ من المال . وإنه ليُسْعِدُني أن أتركَ لك بيوتاً كثيرةً ، وغابات واسعةً ، وإلى جانبها ، أربعمئةِ ألفِ قطعةٍ ذهبية ...

« إيّاكَ أن تفعَلَ فِعلي : فلقد عَمِلْتُ كثيراً ولم أعِشْ ! الحياةُ لا تَعْني أن يَقْضيَ المرءُ عُمْرَهُ جالسا على كرسيّ ، داخلَ مكتب ! ونصيحتي إليك هي أن تأكلَ وتشربَ وتسافرَ وتسلّيَ نفسَك وتنفقَ المال ! إن الأغنياء لا يفكّرون إلا في جَمْعِ المال . ولكني أقول لَكَ أنفقِ المالَ .. حَذارِ أن ينتقلَ ذهبي ، بعدَ موتكَ ، إلى يدٍ غريبة !

« وأوصيك ، بصورةٍ خاصّة ، ألاّ تفعَلَ كما يفعل آلُ دي ويت ، بمعنى أن تمتنعَ عن الانهماكِ في شؤون الدولة ، لأنّ عاقبة ذلك سيئةٌ على الدوام ! »

ومع هذا فقد كانت نهايةُ السيد فان بيرل سيئةً ، لأنه لم يلبَثْ أن قضى نَحْبَهُ . فبقيَ كورنيليوس وَحيداً في المنزلِ العائليّ الكبير .

وبدأ الطبيبُ الشابّ يُنَفّذ وصيّةَ والدِهِ بالحذافير . فكان أوّل ما فعلَهُ هو أنه تخلّى عن مهنةِ الطبّ ، وراح يُنفِقُ مالَ المرحوم حَسَبَ الإمكان .

وفي تلك الأثناء أخذَهُ كورنيل دي ويت لمقاتلة

الانكليزِ والدفاعِ عن هولندا . غير أن كورنيليوس ما لبِثَ أن عادَ إلى مدينته دُرْدْرَشْتْ ، لأنه لم يكن يحبّ أن يَضْرِبَ أحداً أو يتلقّى الضَّرْبَ من أحد ، ثم إن الحربَ ليست وسيلةً صالحة لإنفاق المال .

ولما وجد نفسَهُ وحيداً في ذلك المنزل الواسع ، راح يفكّر في طريقة لملءِ وقتِه وتَسْلِيَةِ نفسه . فهداهُ التفكيرُ إلى دراسة الفَرَاشِ الذي يعيشُ في المنطقة . وهكذا اشترى شبكةً لصَيْدِ الفَرَاشات وكميّةً من الدبابيس، وصار يقْضِي سحابةَ يومِهِ في الجَرْي وراء فَرَاشات الحقول . ومن ثَمّ يَعْمَدُ إلى دِراستِها ، وتثبيتِها على الورق ، بعد قَتْلِها ، ثم حِفْظِها في علب صغيرة .

وبَعْدَ أنِ انتهى من الفَرَاش ، حوّلَ اهتمامَهُ نحوَ الحشائشِ والنباتات . فكان يبحثُ عن الحشائشِ النادرةِ ، ويقطعُ سُوقَها (جمع ساق) ، ثم يأخُذُ منها قطاعات عَرْضيّةً ، فيدْرُسُها ويَرْسُمها . وبعد ذلك يُجفّفُ النبتةَ داخلَ الكُتُب .

غير أنه لم يكن يتوصّلُ إلى إنفاق الرَّيْع الذي كانت تَدُرُّهُ عليه الأراضي والممتلكات الأخرى . فما لبث أن أصبحَ أغنى من والدِهِ ، فداخلَهُ هَمٌّ من ذلك ، لأنه خالفَ وصيّةَ أبيه .

٢ . بداية حب عظيم

يتميّزُ الهولنديونَ بحبٍّ عظيمٍ : إنه حُبُّهُمْ للأزهار ! فهم يُحِبّونَها جميعاً ، ولكنَّ لزَهْرِ الزنبق المعروف بالتوليب* عندَهُمْ مكانةٌ خاصة .. إنهم يفضّلونه على كلِّ ما عداه من الأزهار .

وتَنْبُتُ أزهارُ التوليب من بَصَلٍ يُشْبِهُ بَصَلَ الزّنبق . وتُدْفَنُ بَصَلَةُ التوليبِ عادةً في أوائل شهر نَيْسان . وسُرْعانَ ما تعطي زهرةً كبيرةً لها شكل الكُوْب . ويُمكِنُ للبَصَلة الواحدةِ أن تتفرّعَ إلى ثلاثِ بَصَلات ، فتعطي ثلاثَ زَهَراتٍ في المَوْسمِ التالي .

والمَنْبِتُ الأصليّ للتوليب هُوَ البلادُ الحارّةُ في الشرق . وقد نُقِلَ إلى أوربا منذ زمنٍ طويل . ولكنّ الهولنديين عَمِلوا على استنبات ألوانٍ جديدةٍ منه . وهكذا أصبحت بعض بَصَلاته تباع بمئات القِطَعِ الذهبية .

---

* التوليب Tulipe زهر يشكل جانباً كبيراً من الثروة الوطنية في هولندا . وهو زهر يختلف في الواقع عن الزنبق ، ولكن مترجمي هذه الرواية القدامى تواضعوا خطأً على تسميتها بـ « الزنبقة السوداء » فآثرنا مجاراتهم في ذلك (الناشر) .

ولما كان كورنيليوس يُحِبُّ الأزهارَ ، كغيره من الهولنديين ، فقد أخذَ في دراسةِ أنواعِ الزهور التي لا حصْرَ لها . وفي ذاتِ يومٍ عُرِضَتْ عليه توليبة* (زنبقة) بثمنٍ مرتفِعٍ . فقال في نفسِهِ إنّ هذه أفضلُ وسيلةٍ لإنفاق مالِ أبيه وتنفيذ وصيّتِهِ في الوقتِ نفسِهِ . فاشترى الزهرةَ ، وهَمّ بقَطْعِ ساقها ودِراستِها . وفجأةً راح يُطيلُ النظرَ إلى تلك الزهرةِ الجميلة . وامتلأتْ نفسُهُ بفَرْحةٍ طاغية ، وشَعَرَ أن شيئاً جَديداً قد طَرَأَ على حياتِهِ . وبالفعلِ كان مُقَدَّراً له أنْ يَتَغَيَّرَ مجرى حياتِهِ منذُ تلك اللحظة .

في اليوم التالي تَوَجّهَ كورنيليوس إلى مدينةِ « هارلم » القاعدة الأولى لزُرّاعِ الزنبق في هولندا ، أو قُلْ عاصمتهم . ولما عاد ، كان يحملُ معه طائفةً كبيرةً من أجْوَدِ وأغلى أنواعِ البَصَل ، إذ أنه وَطّدَ العزْمَ على أن يُوَجّهَ كلَّ هَمّه نحوَ غَرْس الزنبق ، واستنبات مختلِفِ أنواعِهِ ، بحيثُ تُصْبِحُ لَدَيْهِ أجملُ تشكيلةٍ منها في هولندا ، وبالتالي في العالم !

بَعْدَ ذلكَ نَقَلَ إلى حديقتِهِ الواسعةِ كمياتٍ وافرةً من التربة الجيّدة الغنية . كما جاء بأمهرِ العاملينَ في الحدائقِ لتمهيد الأرضِ وإعدادِها . وفي أواخرِ آذارَ

غَرَسَ أوّلَ مجموعةٍ من البصل .

وفي شهرِ نَيْسانَ بدأتْ تَخْرُجُ نبتةٌ صغيرةٌ من كل بصلة . ثم امتدّتْ ساقٌ مُدَبَّبَةُ الرأس ، كأنها نَصْلُ سيف . بعد ذلك ظهرَتْ زهرةٌ رائعةٌ بين ورقتَيْن في أعلى الساق . وكان كورنيليوس يراقبُ كلَّ هذه التطوّراتِ بسعادةٍ ما بعدَها سعادة .

وكان دائمَ العنايةِ بأزهارِه . فإذا أقبلَ الليلُ بثّ حَوْلَها القَشّ ، حمايةً لها من البرد . أما عندما يشتدُّ حَرُّ الشمسِ وَقْتَ الظهيرةِ فقد كان يَحْجُبُ عنها الشمسَ بواسطةِ قِطَعٍ كبيرةٍ من النسيج يَنْشُرُها فوقها، على شيءٍ من الارتفاع .

وشيئاً فشيئاً أصبحَتْ لَدَيْهِ خبرةٌ واسعةٌ في حَرَكات الشّمس وانتقالِ الظّلالِ وتقديرِ قوةِ الرياح ، وفي حمايةِ نَبْتِهِ من الحَشَرات الضارّة . وبذلك أصبحَ هذا الطبيبُ الشابّ زارع زنبقٍ من الطرازِ الأول . وكان إلى جانب ذلكَ صديقاً لزُرّاع الزنبق ، مَحْبوباً من قِبَلَ العُمّالِ والبستانيّة الذين كانوا يُساعدونَهُ في العمل . ولا بدّ أن والدَهُ ، طيّبَ الذكر ، كان راضياً عنه لأن أموالَهُ لم تَعُدْ تزيد .

٣ . الجار الحسود

وكان لكورنيليوس هذا ، الطيّبِ الوديع ، جارٌ لئيمٌ يعمَلُ في زراعة الزهور ، كما كان يعملُ أبوه من قبله . ولم يكن هذا الجار ، الذي يدعى إسحاق بوكستل ، غنيّاً ، ولكنّهُ استطاعَ ، مع ذلك ، وبفضلِ الكدِّ والعملِ الدائب ، أن يجعَلَ من بستانه الرديءِ التُربةِ ، أرضاً طيّبة تنتج أزاهيرَ الزنبق ، وإن كانت معلوماتُه تقتصِرُ على معرفةِ الأيامِ والسّاعات ، ومواعيدِ تغطيةِ الأزهارِ وكَشْفِها ، دون أن يكونَ له تدقيقُ كورنيليوس وتعمّقُهُ في دراسةِ حركات الظّلالِ والأضواء .

وكانت أزاهيرُهُ مشتهرةً منذُ مُدّةٍ طويلة . بل إنه تمكّنَ من استنبات نوعٍ جديد من الزنبق ، عُرِفَ في جميعِ أنحاءِ فرنسا ، ثم تعدّاها إلى إسبانيا والبرتغال .

وكان إسحاقُ هذا يلازِمُ بيتَهُ ، فلا يغادرُهُ إلا فيما نَدَرَ . ومع هذا فقد علِمَ بما فَعَلَهُ جارُه كورنيليوس، ووصَلَ إلى مسامعه نبأ شرائه لأغلى بصل الزنبق ، فأضحكه النبأ وقال في نفسه : إن الرّجُلَ لديهِ من المالِ ما يزيدُ عن حاجته ، ولهذا فهو يريدُ أن يستنبت

زنبقاً ليسلّيَ نفسَهُ برَسْمِهِ . وبعدَ ذلكَ نسيَ الحادثةَ ، ولم يَعُدْ يَهتَمّ بها .

ولكنْ دُهِشَ ذاتَ صباحٍ إذْ رأى ظلالاً جديدةً تمتدّ فوقَ مساكبِ الزهر في بستانِه . فرفعَ رأسَهُ ، فرأى مجموعةً من العمّال يَبْنُونَ طبقةً أخرى فوقَ منزل فان بيرل . لقد كانَ من شأن هذه الطبقة الجديدةَ أن تَحْجُبَ الشمسَ عن بستانه ، فلا ترتفعُ الحرارةُ فوقَ الأزاهرِ كما ينبغي وقتَ الظهيرة ، كما أنّ من شأنها أن تغيّر اتجاهَ الرياح . فاغتاظَ بوكستل ، ولكنْ لم يكنْ في وُسْعِه أن يقولَ أو يفعلَ أيّ شيء ، لأنّ هولندا هي بلدُ الحريّة ، فليس في استطاعةِ أحد أن يمنعَ جارَهُ من زيادةِ طبقةٍ جديدةٍ على منزلِه .

في شتاء تلك السنةِ رأى بوكستل أن حركةَ الرّياح قد خفّتْ في بستانه ، فكان من أثرِ ذلك أن طالتْ سوقُ أزهاره ، كذلك لم تكنْ حرارةُ الشمسِ شديدةً عليها في شهريْ أيار وحزيران .

وشعرَ بوكستل بينَهُ وبين نفسهِ بامتنان لكورنيليوس بسبب هذه الخدمةِ غيرِ المقصودة ، ولكنّه ظلّ معَ ذلك قلقاً يتساءل : « لماذا بنى كورنيليوس طبقةً جديدةً ، مع أن الدارَ ، التي يَسْكُنُها ، أكبرُ من

جميعِ الدُورِ في دُورْدْرَشْت ، وهي من الاتّساعِ بحيثُ تستطيعُ أن تَضُمّ كافّةَ الفرَاشِ والحشائشِ والنباتات التي يمتلكُها ؟ ! .. قد تكونُ لديْهِ طائفةٌ كبيرةٌ من الرسومِ واللّوحات ، ولكنّ هذه لا تتطلّبُ مكاناً أكثرَ اتساعاً ! ... »

وذاتَ يومٍ كانتْ إحدى النوافذِ في منزلِ كورنيليوس مفتوحةً ، فصعد بوكستل فوقَ شجرة ، وراحَ ينظرُ الى الداخل ، فرأى مجموعةً كبيرةً من الأدوات والصناديقِ الخشبيةِ المسطّحة والعُلَبِ المختلفة الأشكال والأحجام ، وكثيراً من البصل الذي نُظّمَ بعضُهُ وظلّ البعضُ الآخر مكوّماً . كذلك رأى في الجانب الآخَرِ من بُستانِ جارِهِ مساكبَ واسعةً قد قُلِبَتْ تُربَتُها وسُمّدت ، وأصبحتْ معَدّةً لاستقبال الزَرْع . وكانتِ المساكبُ مكشوفةً للشمس طُولَ النهار . إذن فقد أصبح كورنيليوس زرّاعاً ، ما في ذلك شكّ .. وقال بوكستل محدّثاً نفسه :

« إن فان بيرل عالمٌ وطبيب ، وقد دَرَسَ جميعَ الحشائشِ والمزروعات ، ولهذا فلن يلبثَ أن يُنتج أفضل زنبق في هولندا ، وبالتالي في العالم ! » .

٤ . كورنيليوس يزداد ثراء

نسيَ كورنيليوس وصايا والده وانقطعَ ، في داره الواسعة ، لزراعةِ الزنبق ، الذي صارَ يُحبّه حبّاً جنونياً ، بحيث لم يَعُدْ يعيشُ إلا من أجله . وسُرعانَ ما استَنبتَ أربعةَ أنواعٍ من هذا الزهر ، أطلق على الأولِ اسمَ والدته «حنّة» ، وعلى الثاني اسمَ والدِهِ : « فان بيرل » ، وعلى الثالث اسمَ كورنيل دي ويت ، صديقِ الأسرةِ القديم ، أما الزهرةُ الرابعةُ فقد دعاها بـ « العجيبة » ، لروعتها . كانت أزاهيرُ الزنبق قبل ذلك ليس لها سوى لونٍ واحد ، أما الآنَ فقد أصبحت ، بفضلِ كورنيليوس ، تشتملُ على الرّماديّ والورْديّ والأصفرِ والأحمرِ ، فتمازجُ هذه الألوانُ في الحديقةِ الواحدةِ بشكلٍ يَسْحَرُ الألباب .

وراحَ بوكستل يسألُ إن كان جارُهُ يَقْبَلُ أن يبيعَ بصلاً ، فقيل له إنهُ لن يبيعَ من بصلِهِ قبلَ العامِ القادم . وأضافَ مَنْ نقَلَ الخبرَ قائلاً :

« إن كورنيليوس سيشتهرُ في جميع أنحاء هولندا ، وحتى في أوربا كلّها ! »

وقالَ آخر :

« لابُدَّ أنه سيكْسبُ مالاً كثيراً ، ويُصبح أغنى من والده ! »

وكان كلُّ ما قالوه صحيحاً ، فقد كان كورنيليوس يَبْذُلُ المزيدَ من النشاط يوماً بعد يوم ، وكلَّ يوم يزدادُ غنىً وشهرةً ، حتى أصبح في نظرِ زُرّاعِ التوليب بهولندا يمثل الزنبق وكلَّ ما يتصل بالزنبق .

٥ . عدو لدود

أصبح من عادة بوكستل أن يَقْبَعَ في شَجرتِهِ كل يوم ليتابعَ نشاطَ جارِهِ كورنيليوس وتحرّكاته ، كما يَطّلِعَ على مختلفِ الطّرُق التي يلجأ إليها للعناية بنباتِهِ . ولما رأى أن العَيْنَ المجرّدةَ لا تُسْعفُهُ في استكشافِ دقائقِ العمل ، الذي يقومُ به جارُهُ ، اشترى منظاراً مكبّراً ، وراح يتلصّص عليه لَيْلَ نَهارَ .

في ليالي الخريفِ والشتاءِ كان يَراه يُعالِج « أبصالَهُ » فينقَعُها في ماء ملوّن بألوان مختلفة ، ثم يسخّنُها ويُجَفّفُها . أما في الربيعِ والصّيفِ فكان يَشْهَدُهُ

وهو يَزْرَعُها ويتابعُ نُموَّها ثم يتلذّذُ بمرآها وقد ازدانتْ بالأزهارِ الرائعة .

كان إسحاقُ الحسودُ ، هو أيضاً ، شغوفاً بالأزهار . ولهذا راعتْهُ أزاهرُ جارِه الفائقةُ الجمال ، ولكنّه ، بدَلَ تهنئتِه على هذا الإبداع ، حمَلَ له حقداً مُدمِّراً ، وآلى على نفسِه أن يَقضيَ على جميعِ تلك الغِراسِ والأبصال .

خطَرَ له أولاً أن يَقذفَ حجارةً وعِصيّاً في المساكبِ أو أن يَهبِطَ ليلاً إلى الحديقةِ فيُتْلِفَ كلَّ ما فيها . ولكنه رأى أن ذلك سيَعودُ عليه بضررٍ كبير ، لأن التهمةَ ستُوجَّهُ إليه مباشرةً ، من حيثُ كونُهُ الجارَ الوحيدَ لكورنيليوس ، فيحاكمُ ويُسْجَن . من أجل ذلك صرَفَ النظرَ عن هذا الحلّ ، وراح يُفكّرُ في وسيلةٍ أخرى تحقّق له غرَضَهُ ، وتُبْعِدُ عنه أيّ شُبهةٍ .

واهتدى آخرَ الأمرِ إلى الطريقةِ المُثْلَى ، فعمَدَ ذاتَ ليلةٍ إلى هِرَّيْن ، وربَطَهما معاً ، من إحدى قوائمهما ، بخيطٍ متين ، وألقاهما في حديقةِ جارِه ، ثم وقف يَشْهَدُ ما يَحْدُثُ من فوق السور .

وما إن وَقَعَ الهِرّانِ بين أزهارِ الزنبقِ المختلفة ،

حتى هبّا يُريدان الهربَ فزِعَيْن ، وانطلق كلٌّ من جهتِه ، ولكنّ الرباطَ المتينَ شدّ كلَّ واحدٍ إلى رفيقه . وهكذا راحا ينطلقان ثم ينكفئان ، ليَصْطَدِما ببعضهما ، ويتقلّبان ، ثم يَهُبّان . وفي كل حركةٍ كانا يُحطّمان أعناقَ الزهورِ ويقتلعانِ الأبصال ، ويبثّان الخراب في أنحاء الحديقة .

ولم يكن بوكستل يستطيعُ أن يُميّزَ في الظلام ما يَحْدُثُ للأزهار . كلُّ ما هنالك أنه كان يَسْمَعُ تخبُّطَ الهِرّيْنِ ومُواءهما الرهيب ، الذي دامَ نحوَ ربعِ ساعة . ولكنْ في هذا الوقتِ انقطعَ الخيط ، وعاد الصمتُ يسودُ الحديقة . غير أن بوكستل ظل قابعاً في الشجرةِ حتى الصباح ، كيما يرى مبلغَ الدمارِ الذي أصابَ الحديقة .

في الصباح فُتِحَ بابُ المنزلِ الأبيضِ وخرجَ منه كورنيليوس ، الذي كان ينتظرُ قدومَ النهار ليستمتعَ بمرأى أزاهيره . وفوجِىء بما حلَّ ببستانِه من تخريب ، ولكنّهُ كان سعيداً لأنّ الدمارَ لم يصِلْ إلى زنبقة «كورنيل» و «البرابَنْسون» ، و «الكرامبين» ، «والعجيبة» ، إذ لم تتحطّمْ واحدةٌ من هذه النباتاتِ الأربع . أما بوكستل فقد تميّزَ من الغَيْظِ لأن خِطّتَهُ لم تنجحِ النجاحَ الكامل .



وهكذا تمكن كورنيليوس من انتاج زنبق أسود غامق ...

٦ . الزنبقة السوداء

بعد هذه الحادثة بأيامٍ قرّرَ زارعو مدينة هارلم أن يخصصوا جائزةً قَدَّرُوها مئتا ألف قطعة ذهبية لمن يُنْتِجُ أوّلَ زنبقة سوداء . وقد أكّدوا على أن هذه الزنبقةَ يجب أن تكونَ بلونِ الفحم ، وأنْ تكونَ خاليةً من أيّ بقعةٍ ملوّنة .

وتساءلَ بعضُ الناسِ قائلين :

« ولمَ لا يُقَدّمونَ مليوني قطعة ؟ فنحن لم نعرفْ قطّ حتى الزنبقَ الأسمرَ ، ولا الأحمرَ الداكنَ ، فكيف يمكنُ إنتاجُ زنبقةٍ سوداء ؟ في إمكان زُرّاع « هارلم » أن يطمئنوا على مالِهم .. فلن ينجح أحدٌ في هذا المجال ! »

ومع هذا فقد قرّرَ كلٌّ من كورنيليوس وبوكستل أن يحاولَ ذلك . وبدأ كورنيليوس بتحويلِ الأحمرِ الفاتح إلى أدكن . وفي مدى عامين اثنَيْن تمكّنَ من إنتاج زنبق أسمرَ غامق . أما بوكستل فلم يتمكنْ من استنبات غيرِ الزنبقِ الفاتح ، ولهذا دبّ اليأسُ في نفسِهِ ، حتى إنه أهملَ أزهارَهُ وصارَ يقضي معظمَ وقتِهِ في « شجرةِ المراقبة » والمنظارُ المقرّبُ على عينه .

في ذلك الوقت كان كورنيليوس يتابعُ الأبحاثَ والتجاربَ في معملِهِ : فيقطعُ ويحلّلُ ويمزُج ، وينقلُ الأبصالَ من النورِ إلى الظلّ ، ومن الظلّ إلى النور ... وفي انهماكِهِ ذاكَ كان دوماً تحت نظرِ بوكستل ، الذي كان يردّد بينه وبين نفسه ، والحسرةُ تملأ كيانَهُ :

« هيهاتَ أن أُحسِنَ مثلَ هذا العمل ! ليتَ منظاري هذا سلاحٌ قاتلٌ لأتخلّصَ من هذا الرجل ! »

وخلالَ عدة أعوامٍ رأى جارَهُ يُنتج زنبقاً متزايدَ السُّمرة ، وأقلَّ اشتمالاً على البُقَعِ الملوّنة .

٧ . أوراق هامة

في العشرينَ من كانونَ الثاني عام ١٦٧٢ غادرَ كورنيل دي ويت « لاهاي » ، عاصمةَ هولندا ، وأقامَ عدّةَ أيامٍ في دُورْدْرَشْتْ ، عند بعض الأقارب . وذاتَ مساء جاء إلى منزل كورنيليوس ، وطلب إليه أن ينفرد به ، بعيداً عن مسامع الخدم . فقاده هذا إلى مختبره الذي لم يكن يُسْمَح لأيّ خادمٍ بدخوله .

ولما رأى بوكستل ضوءاً في مختبر كورنيليوس أسرع إلى شجرتِهِ وفي يدهِ المنظار . وسُرْعانَ ما عرَف

كورنيل دي ويت ، الذي لم يكن أحدٌ يجهلهُ في دُورْدْرَشْتْ ، لأنه كان أحدَ كبارِ الزعماء في البلاد . ورأى ، من خلالِ المنظارِ ، كورنيل دي ويت يتحدّثُ إلى كورنيليوس ثم يسلّمه صُرّة ، فيضعُها هذا بعناية في الخزانة التي يحفظ فيها أبصالَهُ النادرة . وخطر لبوكستل أن كورنيل دي ويت لا يهتمّ بالزنبق ، بل بالسياسة ، فلمَ إذن هذه السّريّةُ وهذا الحذر..؟! واستنتج من هذا قائلاً : « لا بدّ أن كورنيل دي ويت يخشى من أمرٍ ما ، وهو يُخفي أوراقاً هامة عند كورنيليوس ! »

والواقع أن ظنّ بوكسل كان في محله ، فقد كانت الصُّرة ، التي سلّمها دي ويت إلى كورنيليوس ، تضمّ رسائلَ من الحكومةِ الفرنسية . ذلك أن الأخوين كورنيل وجان دي ويت كانا يبذلانِ الجهودَ ليَحُولا دون وقوعِ الحربِ بين فرنسا وهولندا . ولكنهما كانا يَعلمان أن الرأي العام في هولندا كان يتّجهُ نحو تأييد الحرب ، ولهذا فقد كانت تلك الرسائلُ مصدرَ خطرٍ على كورنيل وأخيه . وقد قال كورنيل لكورنيليوس عندما سلّمهُ الصرة :

« إياك أن تسلّمها إلى أحد ، يا بُني ، إلا إذا تلقّيْتَ رسالةً بخطي أنا ! »

ولم يُخبِرْهُ بشيء عن محتوى الصُّرَّة ، كما لم يتطرّقْ إلى ذكرِ فرنسا على الاطلاق .

٨ . الأخوان دي ويت في بويتنهوف

وفي العشرينَ من آب عام ١٦٧٢ كان رجالٌ مسلّحونَ يسيرونَ في شوارع لاهاي ، متجهين نحو سجن بويتَنْهُوف وهم يهتفون : « الموت للأخوين دي ويت ! إنهما مباعانِ للفرنسيين ! إنهما يريدانِ الهربَ ليأكلا من مالنا في فرنسا ! الموت للفرنسيين ! عاش أميرنا وليم أوف أورنج ! ... »

ولما وصلوا إلى سجن المدينة ، أوقفهم الجنود ، وقال لهم الضابط السيد تِلّي :

« إن الأوامرَ الصادرةَ إليّ هي أن أمنع دخول أي واحد منكم ! »

فراحوا يرددون :

« الموت للأخوين دي ويت ! »

وعاد الضابط يقول :

« إنكم تكررونَ نفسَ الكلام ! هاتوا لي تصريحاً

من البرلمان بالدخول ، وإلاّ أمرتُ بإطلاق النار على كلّ من يتخطّى هذه العَتَبة ! »

وانطلقَ الجمهورُ نحو البرلمان .

أما كورنيل دي ويت فقد كان داخل السجن . والسببُ في ذلك أنه رفض الدخولَ في حرب مع فرنسا مرة أخرى ، كما رفض التوقيعَ على تعيين الأمير أوف أورنج قائداً عاماً للجيش . وعلى أثر ذلك كُسِرت عظامُ يديه ورجليه . ثم قرّرَ البرلمان إبعادَهُ عن البلاد ، فجاء أخوه إلى السجن ليأخُذَهُ .

وفتح مديرُ السجن ، غريفوس ، البابَ لجان دي ويت ، فصعد هذا إلى حُجرة أخيه . وفي السّلّم صادفَ ابنةَ غريفوس ، التي تبلغ نحو سبعةَ عشرَ أو ثمانيةَ عشرَ عاماً . فسلّم عليها بحنان ، قائلاً وهو يضعُ يدَهُ تحت ذقنها بتحبب :

« تحيةً ، يا روزا الجميلة الطيبة ! .. كيف أخي اليوم ! »

— « أواه ، يا سيدي ! إنه في حالةٍ سيئة ! ولا شكّ أن ما يُنْتَظَر شرٌ من هذا بكثير ! »

— « وأيُّ شرٍ ينتظره ؟ »

– « ماذا ؟ ! ألا تسمع هذه الهتافات ؟ »

– « تقصدين الجماهير ؟ ! .. لقد أحسنّا إليها على الدوام ولم نُسيءْ قط ! »

– « وهل هذا يكفي ؟ »

ونظر إليها بإعجاب كأنه يقول : « يا لها من فتاة ! أميّة لا تَفُكّ الحرف ، ومعَ ذلك فهيَ أعقلُ من كثيرٍ من العلماء ! »

وجدَ جان أخاه ممدّداً على السرير وقد لُفّتْ ذراعاهُ وساقاهُ بالأربطة . فنظر إليه بحسرةٍ وألم . قال كورنيل وقد رآه يدخل :

« هذا أنت ، يا جان ؟ ! .. إن هذا ليُريحني ! »

– « لقد جئت لآخذكَ من هنا ! .. دَعني أحملُك ! »

– « ساعِدْني على النهوضِ فقط .. سأسيرُ بنفسي ! »

– « إنّ عربتي تنتظرُ وراء الجنود ! »

– « وعلامَ الجنود؟ »

– « إن الساحةَ مزدحمةٌ بالناس ! »

– « ولماذا يريدُ الناسُ بنا شراً ؟ ! ألأننا عارضنا استئنافَ الحرب ؟ ! لقد هُزِمنا في « ريل» و « فيزل »

و « رنبرغ » ! .. إنني لا أحب الحرب ! »

– « ولكن القوة ليست في جانبنا ! »

– « كان من الممكن عقدُ اتفاق ! .. إن رسائلَكَ إلى الحكومة الفرنسيةِ ستُبيّن ذلك في يومٍ من الأيام ، كما ستبيّنُ مبلغَ حبّكَ لوطنك ! »

– « ألم تُحْرِقْ هذه الرسائل ؟ »

– « كلا ! بل أردتُ أن يطّلع عليها أبناؤنا ! »

– « لقد ضِعْنا ، يا أخي ! .. إنهم سيقْتُلوننا ! »

واقتربَ حاكمُ هولندا السابق من النافذة ، فرأى ضغطَ الجماهيرِ على الجنود يزدادُ لحظةً بعد أخرى . وعاد يقولُ لأخيه كورنيل :

« وماذا فعلتَ إذن بالرسائل ؟ »

– « خبأتُها عند كورنيليوس فان بيرل ! .. إنه أهدأ وأرقّ رجلٍ في هولندا ! وهو منقطعٌ تماماً لأزهاره ، فلن يخطرَ لأحدٍ أن الرسائلَ في حَوْزته . »

– « وهذا الصديقُ أيضاً قد ضاع ! .. هيّا بنا نهربُ يا أخي ! .. قد يكونُ الهربُ ما زالَ في الإمكان ! »

– « أنا متأكد من كورنيليوس ! .. ثم إنه لا يعلمُ ما في داخل الصرة ! »

— « إذن فلنرسلْ إليه في الحال بأنْ يُحْرِقَ الصُّرَّة بكاملها ! »

— « ومَنْذا الذي يمكنُ أن نرسلهُ إليه ؟ »

— « خادمي كريك ! .. لقد أدخلتُه معي ليساعدَني على حَمْلِك ! »

— « ينبغي ألاّ تُحْرَقَ هذه الرسائل ! .. يجبُ أن يعرِفَ أولادُك مبلغَ شجاعتكَ وحبّكَ لشعبك ! »

— « علينا أولاً أن نُنقذ أنفسَنا من الموت ، فلا أحدَ يستطيع الدفاع عنا بعد أن نموت ، ولا أحدَ يستطيعُ فَهْمَنا ! »

وكانت تصلُ إلى مَسْمَعِها هُتافاتٌ رهيبةٌ من الساحة التي تمتدّ أمامَ السجن :

« الموت لأصدقاء الفرنسيين ! »

٩ . رسالة على ورقة انجيل

قال جان دي ويت ، وهو يُنْصِتُ إلى هذه الهُتافات :

« يجب أن تُحرَق هذه الرسائل ، يا أخي ! .. سأنادي كريك لتكلّفَهُ بالذّهاب إلى منزلِ كورنيليوس ! »

ثم فتَح الباب ونادى كريك ، وقال :

« كريك ! إن أخي يريدُ أن يُكلّفكَ بمهمة ! »

قال كورنيل :

« إنني مُضْطرٌ إلى كتابةِ رسالة ! »

— « لماذا ؟ »

— « لأنني أوصيتُ كورنيليوس بألاّ يتصرفَ بالصُّرّة إلا إذا تلقّى رسالةً بخطّ يدي ! »

— « وهل أنت قادر على الكتابة ، يا عزيزي ؟ ! »

— « سأحاول ! .. إن يدي تتحرّكُ قليلاً .. أعطني ما أكتبُ به ! »

فأعطاه قلماً واقتلعَ أولَ ورقةٍ من إنجيل كان على المنضَدَة . فراح كورنيل يكتبُ بصعوبة ، بينما تظهرُ بقعٌ من الدم على ضِمادِ يدِهِ اليمنى . وقد جاء في هذه الرسالةِ قولُهُ :

« ولدي العزيز !

« لقد سلّمْتُكَ صُرّةً في كانونَ الثاني الفائت ، دون أن أقولَ لك شيئاً عما تشتملُ عليه ! أرجو أن تُحْرِقَها حالاً دون أن تفتَحَها أو تحاولَ معرفةَ ما فيها ! .. أحِبّني دائماً ! » ثم وقّعَ الرسالةَ ووضعَ

عليها تاريخ العشرينَ من آب عام ١٦٧٢ .

قال جان لخادمه ، وهو يسلمه الرسالة :

« كريك ! يجب ألا يراكَ أحد في صُحبتنا ! حاولْ أن تخرُجَ أولاً ، وسننتظرُ نحن خمسَ دقائق . »

١٠ . أمر بالإعدام

كان الضابطُ على وَشْكِ أن يأمُرَ باطلاق النار على الناس المتجمهرين في الساحة ، عندما انطلقَ صوتٌ من وَسطِ الحشدِ يَصيح :

« ها هُوَ أمرُ البرلمان ! »

وتقدّمَ رجلٌ من الضابط وسلّمه ورقةً ، فقرأها ثم طواها بعنايةٍ ووضعَها في جيبه . وبعد هذا أصدرَ الأمرَ إلى جنوده بالاصْطِفاف ومغادرةِ المكان .

وما إنِ انسحبَ الجنود ، حتى هجمَ الجمهورُ على بابِ السجنِ وراحوا يدُقّونَ عليه بعنف .

في هذا الوقت كان جان دي ويت يَهبِطُ السُّلَّمَ وهو يسندُ أخاه . ولقيَ الفتاةَ روزا عند أسفلِ السُّلَّم وهي ترتعد من الخوف .. قالت :

« يا لَلْمصيبة ، يا سيدي ، يا لَلْمصيبة ! »

— « ماذا ، يا بُنَيّتي ؟ »

— « لقد تلقّى الجنودُ الأمرَ بالانسحاب ! »

قال جان :

« إنّ هذا لا يبشّرُ بخير ! »

وقالت الفتاة :

« أتريد نصيحتي ، يا سيدي ؟ »

— « وبماذا تشيرينَ ، يا بُنَيّتي ؟ »

— « ينبغي ألا تَسلُكا الشارعَ الرئيسيّ ! .. أخرُجا من البابِ الخلفي ، فليس أمامَهُ أحدٌ في هذه اللحظة ، وبعدَ ذلكَ غادِرا المدينةَ من أوّلِ باب ! »

— « ولكنّ أخي لا يستطيعُ أن يقطعَ هذه المسافة ! »

وردّ كورنيل قائلاً :

« بلى ! أستطيعُ ذلك ! »

واستطرد جان يقول :

« ولكنّ والدَكِ لن يوافقَ على فتح الباب الخلفي ! »

— « دَعْكَ من والدي .. ها هو المفتاحُ معي .. لقد أخذْتُهُ دون علمِهِ ! »

وقال كورنيل :

« لقد تركتُ إنجيلاً على المِنْضَدَة ، يا بُنَيَّتي .. إنني أهَبُكِ إياه .. لا بُدّ أنه سيُفيدُكِ ! »

— « إنني أجهلُ القراءةَ ، يا سيدي ، ولكنني سأحتفظُ به ! .. هيّا ، أسرعا ! ألا تسمعانِ كيف يحاولونَ تحطيمَ الباب ؟ » وكان يُسْمَعُ في تلكَ اللحظةِ ضربٌ شديدٌ على الباب ، يمتزجُ بالهُتافات :

« الموت للأخوين دي ويت ! »

وبَعْدَ عناء كبير هبط كورنيل السُلَّم ، يُسندُهُ أخوه ، ثم اجتاز الاثنان فناءً صغيراً ، ووصلا إلى البابِ الخلفيّ ، الذي فتحَتْهُ الفتاةُ ، ثم قالتْ لهما :

« أسرِعا ! أسرِعا ! »

قال كورنيل :

« شكراً لكِ يا بُنيّتي ! لقد أنقذْتِ حياةَ رَجُلَيْن ! »

قالت الفتاة وهي تساعدُهُ على الصّعود إلى العربة التي كانت تنتظرهُما :

« لستُ متأكّدةً من هذا بعدُ ، يا سيدي ! »

جلس جان بجانب أخيه وقال للحوذيّ :

« إلى باب « تول – هه » ! »

وانطلقتِ العَرَبة ، ولكنّ بعض الرجالِ وصلوا في

تلك اللحظة وصاحوا :

« ها هما .. إنهما يهربان ! »

وأغلقَتْ روزا الباب ، وألقَتْ مفتاحَهُ في بئر هناك، وعادت إلى الداخل ، فوجدَتْ والدَها واقفاً قربَ الباب الرئيسي ، وقد اكتسى وجهُهُ بصُفرةٍ كصُفرة الموت . قال وهو يرى ابنتَهُ مُقْبلةً :

« أتسمعين ؟ ! إنهم سيتمكّنون من كَسْر الباب خلالَ دقيقتَيْن ، ولا بُدّ أن يقتلونا ، لأنني رَفَضْتُ فتح البابِ بدون أمر ! »

— « هيّا نختبىء ! »

— « أين ؟ »

— « في سجنِ المجانين تحت الأرض ! »

ومضى غريفوس وابنتُهُ إلى القبْو ، وما هيَ سوى لحظاتٍ حتى تحطّمَ الباب ، واندفعَ الجمهورُ الغاضبُ داخلَ السجن وهو يصيح :

« الموت لكورنيل وجان دي ويت ! الموت ! الموت ! »

١١ . انا احمل الجمال !

في هذا الوقت كان « كريك » في طريقه إلى دُورْدْرَشْتْ لإيصال الرسالةِ إلى كورنيليوس . لقد سار مسافةً وهو على ظهر حصانِه ، ثمّ تركَ الحصانَ عند صديق له يقطُنُ قريباً من النهر ، وأكمل طريقَهُ بواسطة سفينة نهرية . وأشرَفَ أخيراً على مدينة دُورْدْرَشْت بمنازلها الجميلة ، التي يلتمعُ قرميدُها المغسولُ بمياهِ المطر . وظهَرَ لَهُ في أعلى المدينةِ منزلُ آل بيرل ، لأنه أكبر الدُّور .

أمّا كورنيليوس فقد كان في تلك اللحظةِ يعمَلُ داخلَ مُختَبَرِه . كان في قمّةِ السّعادةِ لأنه استطاعَ أن يحصَلَ أخيراً على ثلاث بَصَلات مُؤَهَّلة لأن تعطي كلٌّ منها زنبقةً سوداء في الربيع التالي . كان ينظُرُ إلى هذه البَصَلات الناعمة السوداء بشغف عظيمٍ ، كأنها بناتُه ، ويقولُ بابتسامةٍ مشرقةٍ سعيدة :

« سوفَ تُولَدُ الزنبقةُ السوداء العظيمةُ في بستاني ، أنا ! وسأحصلُ على جائزةِ المئتَيْ ألفِ ذهبية .. سأهَبُ هذا المالَ لفقراء دُورْدْرَشْت ، فيحمُون أزاهيري في هذه الأيام العصيبةِ من الحرب .. ولكنْ

قد أعطيهم نصفَ المبلغ لأستخدمَ النصفَ الآخرَ في إبداع أنواعٍ جديدة من الزنبق ! .. ما أجملَ بناتي الثلاثَ هذه ! إنهنّ سيُعطينَ بالتأكيد الزنبقة السوداء الأولى ! .. ماذا أدعوها ؟ .. زنبقة فان بيرل السوداء ؟ .. ولم لا ؟ .. إنه اسم جميل ! سيكون على كل لسان في أوساط زُرّاع الزنبق بأوربا ! .. سيقولون : لقد ولدت الزنبقة السوداء العظيمة ! .. وما اسمُها ؟ . اسمها زنبقة فان بيرل السوداء ! ولكن لمَ كان اسمها فان بيرل ؟ لأن أباها هو السيد فان بيرل ، الذي سبق له أن استنبت خمسة أنواعٍ جديدة على الأقل هي : حنّة ، وكورنيل دي ويت ، وكولومبين ، والعجيبة ... سوف تنسى هولندا وينسى العالمُ أسماء الزعماء الذين يَصْنَعون الحرب ، ولكنهما لن ينسَيا اسمي أنا : كورنيليوس فان بيرل ، لأنني لا أقتلُ الناسَ ، بل أحملُ إليهم الجمال ...»

وفجأةً قَرعَ جَرَسُ المختبر بإلحاح . فوضع كورنيليوس يده فوق بصلاته الثلاث .. فوقَ بناتِه ، وصاح : مَنْ هناك ؟ ولم يَكدْ يُكملُ سؤالَهُ حتى دخلَ عليه أحدُ خدمِه وقال له :

« سيّدي ، إن هناك رجلاً ، آتياً من لاهاي ، يريدُ أن يكلّمَك ! »

— « من هو ؟ »

— « إنه يُدْعَى كريك ! »

— « كريك ؟ حَسَناً .. قل له لينتظِرْني ! »

— « لا أستطيعُ الانتظارَ لحظةً واحدةً ! »

بهذا رَدَّ خادمُ جان . دي ويت الذي اقتحم على فان بيرل المختبرَ . وانتفضَ كورنيليوس خوفاً على بَصَلاتِه التي وَقَعَتْ إحداها تحتَ المائدة ، وتَدَحْرَجَتْ أخرى إلى قربِ الموقد . قال كورنيليوس وهو يبحث عن بَصَلَتَيْه :

« ماذا تُريد ، يا كريك ؟ .. ما الذي حدث ؟ »

— « سيِّدي ! لقد شاهدتُ رجالاً مسلّحين يَقْصِدون إلى منزِلِكَ ، فينبغي أن تقرأ هذه الورقةَ في الحال ! »

ولم ينتظرْ كريكْ جواباً ، بل وَضَعَ الورقةَ على المِنْضَدة ، ومضى على عجل قبل أن يُدَاهِمَ المنزلُ . أمّا كورنيليوس فلم يَلْحَظْ خروجَ الخادم ، ولهذا رَدَّ عليه وهو لا يزالُ منهمكاً في البحثِ عن البصلتين :

« حسناً ، يا كريك ! سأقرأ رُقْعَتَكَ ! »

وفي هذه اللحظة عثَرَ على البصلةِ الأولى تحتَ المنضدة ، فالتَقَطَها بعنايةٍ ، وراح يُقبّلها ، ثم قال يُحدِّث نفسَهُ :

« لحسن الحظ لم يُصِبْ هذه أيَّ ضرر ! .. ما الذي جعلَ كريك يَدْخُلُ مختبري على هذا النحو ؟ ! .. لأبحثِ الآنَ عن البصلةِ الأخرى ! » وركعَ على الأرض ، وراح يسيرُ على يَدَيْهِ وركبتَيْهِ باحثاً عن بصلَته . فلما وجدَها وَضَعَها في كفّهِ وجعلَ يَفحَصُها ، فوجدَها سليمةً ، هي الأخرى .

وهنا فُتِحَ البابُ ، ولكنْ بشدّةٍ في هذه المرة . وشعر كورنيليوس بالغضب للمرة الأولى ، فصاحَ وهو ينتصب :

« ثم ماذا بعد ؟ ! هل جُنِنْتم هذا اليوم ؟ »

قال الخادم والرعبُ مرتسمٌ على وجهه :

« سيدي ! سيدي ! »

— « ماذا تريد ؟ »

— « سيدي ! هيّا اهربْ ! .. أهرُبْ بسرعة ! »

— « وما الذي يحملني على الهرب ؟ »

— « الجندُ يملأونَ الدار ؟ »

— « وماذا يَبْغُوْن ؟ »

— « إنهم يبحثون عنك ؟ »

— « لماذا ؟ »



الجنود يسألون كورنيليوس عن الرسائل المودعة لديه

— « إنهم يُريدونَ اعتقالَكَ ! »

— « اعتقالي أنا ؟ ! ولأيّ سبب ؟ ! »

— « هاهُم يَصْعَدون .. أنجُ بنفسِك يا سيدي .. هيّا ! »

— « ومن أين أهرُب ؟ »

— « إقفِزْ من النافذة ! »

— « ولكنها على ارتفاع ثمانية أمتار ! »

— « لا بأس ! .. ستقعُ على تُربةٍ هَشّة ! »

— « ماذا ؟ ! فوقَ أزهارِ الزنبق ؟ ! هذا لا يمكنُ أن يَحدُث ! »

واقترب من النافذة ، وأطلّ منها ، ولما رأى أزهارَهُ عادَ وهو يردّد : « مستحيل ! مستحيل ! »

وبحث عن ورقة يَلُفّ بها البَصَلات الثلاثَ فلم يَجِدْ سوى ورقةِ الإنجيل التي حَمَلها إليه كريك ، فلَفّ بها بَصَلاتِهِ ، وخبّأها في صَدْرِهِ ، ثم وَقَفَ ينتظر .

١٢ . الوشاية

دخل ضابطٌ ووراءَهُ خمسةُ جنودٍ إلى المختبر وكورنيليوس فان بيرل واقفٌ في الانتظار . قال الضابط :

« أأنت الدكتور كورنيليوس فان بيرل ؟ »

— « نعم أنا كورنيليوس فان بيرل ، وأنت تعرف هذا جيداً ، لأنك تعرفني شخصياً منذ وقت طويل ! »

— « حسناً ! إذن أعطني رسائلَ الحكومةِ الفرنسيةِ إلى الأَخوَين دي ويت ! »

وتساءَلَ كورنيليوس دَهِشاً :

« رسائلَ الحكومة الفرنسية ؟ ! »

— « لا تتصنَّعِ الدَّهَش ! »

— « إنني لا أفهَمُ شيئاً ! .. ماذا تريدُ بالدّقّة ؟ »

— « إنني أريدُ أوراقَ كورنيل دي ويت ! .. لقد سَلّمَكَ إياها في شهرِ كانونَ الثاني الماضي ! »

— « ليس لديَّ أيّ شيء ! »

— « هذا ما سوف نتأكدُ منه ! .. هل نحنُ في مُختبرك ؟ »

— « نعم ! »

— « أخرجِ الرسائلَ إذن في الحال ! »

— « إنّ الصُّرّةَ ليست مِلكاً لي ، فلا أستطيعُ أن أعطيَكَ إياها ! »

— « دكتور فان بيرل ! باسْمِ القانون آمرُكَ بأن تفتَحَ هذه الخزانة ، وتُخْرِجَ منها الرسائلَ وتسلّمني إياها ! .. إنها هنا ، وأنا أعرفُ ذلك ! »

ولكن كورنيليوس ظلَّ في مكانِهِ لا يتحرك ، فقال الضابط :

« حسناً ! إذن أنا الذي سأفتَحُها ! »

وأقبلَ على الخزانةِ يفتحها ، فإذا به يرى مجموعةً كبيرة من الأبصال ومعها صُرّة . فقال له كورنيليوس :

« سيدي إنني أذكرُ هذه الصُّرّة ، ولكنّني لم أسمَعْ قَطّ شيئاً عن رسائل ! »

— « يبدو أنك بدأت تتذكر ! »

— « ماذا تريدُ أن تقول ؟ »

— « إنكَ تعرفُ جيداً ما أقصِد ! .. تعالَ معي ! »

— « إلى أين ؟ »

— « لديَّ أمرٌ باعتقالك ! »

— « اعتقالي ؟ وماذا جنَيْتُ ؟ »

— « لا أدري ! ستفهَمُ ذلك من قُضاتك ! »

— « قضاة ؟ ! .. وأينَ هُمْ هؤلاءِ القضاة ؟ »

— « في لاهاي ! »

وأقبلَ الخدمُ على كورنيليوس .وهم يبْكون ، بينما راحَ هو يصافحهمْ واحداً واحداً . ولكنّ الجنودَ ساقوهُ نحوَ عرَبةٍ كانت هناك ، وأدخلوه فيها : لقد أصبحَ سجيناً !

١٣ . في لاهاي

من الواضح أن بوكسل كان هو السبب في اعتقال كورنيليوس . فقد علم بما أصاب الأخوين دي ويت ، فكتبَ في الحال إلى الأمير أوف أورنج يُنبئُهُ بأنّ كورنيل دي ويت خبّأ أوراقاً عند كورنيليوس فان بيرل . وبعد أن أرسل الخطابَ لازمَ سريرَهُ ، وقال لخدمه إنه مريض .

وذات صباحٍ سمعَ ضجةً في منزل جاره ، وأصواتَ صعودٍ وهبوطٍ ، ففهم ما يحْدُث عند فان بيرل ، ففرحَ فرحاً لا مزيدَ عليه . وجاءهُ أحدُ الخدمِ يقولُ له :

«سيّدي ! هل عرفت بما حدث ؟»

— « وكيفَ لي أن أعرف ، وأنا ألازمُ الفراشَ منذُ أيام ؟ ! »

— « لقد أُلقيَ القبضُ على جارك ! »

— « كورنيليوس ؟ ! هل ارتكبَ ذنباً ؟ »

— « لقد تعاون مع الأخوين دي ويت على خدمة الفرنسيين ! »

— « أوَ هذا ممكن ؟ ! »

— « لقد رأيتُ الجنودَ بنفسي ، وهم يعتقلونَهُ ، ثم يأخذونَهُ معهم إلى لاهاي ! »

— « ما دُمْتَ قد رأيتَ هذا بنفسِكَ فأنا أصدّقُكَ ! »

وظل إسحق بوكستل راقداً طولَ النهار وجانباً من الليل . فلمّا هدأتِ الحركةُ غادرَ سريرَهُ ، ومضى إلى شجرتِهِ وصعدَ فوقها . لم يكن أحدٌ في بستان فان بيرل ، ومعَ ذلك فقد لبثَ قابعاً في الشجرة حتى انتصفَ الليل . فنزل ثم أخذَ سُلّماً ، وصعدَ عليها وأطلّ من فوقِ السّور ، وراح يتسمّع . كان المنزل مظلماً ، والسكونُ شاملاً . وكانت نافذةُ المختبرِ لا تزالُ مفتوحةً . فسحبَ السُّلّمَ ووضعَها من الجانب الآخر ، وهبَطَ إلى بستانِ جارِهِ ، ثم صعدَ إلى نافذةِ المختبر ، ودخلَ إليه .

كان قلبُهُ متسارِعَ الضّرَبات حتى ليكادُ يقفُ من شدّةِ الانفعال . وبعد أن اطمأنّ قليلاً راح يفتّشُ في الخزانة ، فلم يرَ أثراً لبصَلِ الزنبق الأسود . ولمح

على المِنضدةِ دفترَ حساباتٍ مفتوحاً ، قرأ فيه هذه الأسطر :

« في هذا اليوم ، العشرينَ من آب عام ١٦٧٢ ، استخرجتُ من المَسْكبةِ الكبرى بَصَلة الزنبقة السوداء ، فقسَمْتُها ثلاثاً ، وتمّتِ العمليةُ بنجاح .. البصلاتُ الثلاثُ رائعة . »

وعادَ بوكستل يفتّشُ في كل زاوية . وفجأةً ضرب على جبهته وقال :

« يا لي من أحمق ! أمن الممكن أن يعيش زارع زنبق حقيقيٌ بعيداً عن أبصاله ، وخاصةً إذا كانت أبصالَ زنبق أسود ؟ ! لقد أخذها معَهُ بالتأكيد إلى لاهاي ! .. إذن فعليّ أن أنتقلَ إلى لاهاي لأعيش فيها ! »

١٤ . جهود تضيع

نُقِلَ كورنيليوس ، عند مُنْتَصَفِ الليل ، إلى سجن لاهاي حيث استقبله غريفوس قائلاً :

« صديق كورنيل دي ويت ! .. إن حُجرتَهُ فرَغَتْ منذُ ساعات ، سنقدّمُها لك ، أيها الشابّ ! »

وحملَ مفاتيحَهُ وقادَ سجينَهُ إلى تلك الحجرة التي تُوجَدُ في أعلى السجن .

وسمعتْ روزا الحركةَ ، ففتحت بابَ حجرتها . وكان نورُ الحجرة يُضيء وَجْهَها الموردَ وشعرَها الذهبيَ وعينَيْها الزرقاوين . ونظرَ إليها الشابُ ، ولكن غريفوس دفعَهُ أمامَهُ حتى أوصلَهُ إلى حُجرته ، فأدخلَهُ وأغلقَ عليه الباب .

ولما أصبحَ كورنيليوس وَحْدَهُ ، استلقى على سريره ، ولكنه لم يجدْ إلى النومِ سبيلاً . ولما أقبَلَ الصباحُ تقدّمَ من النافذة الوحيدةِ ونظر إلى الخارج ، فرأى بقايا رَجُلَيْن مُعلّقَيْن على شجرة . ورأى فَوْقَ الجُثّتَيْن لافتةً كُتبَ عليها بالخطّ العريض : « جان دي ويت وأخوه كورنيل عَدُوّا الشعبِ وصديقا فرنسا . »

وما إن قرأ كورنيليوس ما على اللافتةِ حتى أطلق صَيْحةً مُدَوّيةً ، وراح يَخبطُ على الباب بيدَيْه ورجلَيْهِ . وسُرْعانَ ما أقبل غريفوس وفتَحَ الباب ، وسألَهُ غاضباً لماذا يزعجُهُ على هذا النحو ؟ فأشار كورنيليوس إلى الخارج وهو معقودُ اللسان ، ثم قال مُتَلجلِجاً :

« سيّ .. دي ! سيّدي ! هل ترى عند هذهِ الشجرة ؟ »

— « ماذا ؟ »

— « اللا .. فتة ! »

فانفجر غريفوس ضاحكاً ، وقال :

« إذن فقد قرأتَها ؟ ! أجل ، أنها السيّد الصغير .. إنها عدوّا الأمير ، وما صُنِع بهما كان صواباً ! »

وارتمى كورنيليوس على سريره ، حيث لبثَ مُغمَضَ العيْنَيْن ، ممدودَ الذراعين يردّدُ هامساً : « أهكذا يُقتلانِ ويُقطَّعان ؟ ! »

قال غريفوس :

« إنها عدالةُ الشعب ! وغداً سيكونُ دَوْرُك كما أرجو ! »

ثم خرجَ وأقفلَ الباب .

وظل كورنيليوس مدةً طويلةً مستلقياً على سريره يفكّرُ في صديقيْه وفي نهايتها المحزنة . ثم اعتدلَ ، وأخرجَ البصلات الثلاثَ من صدْرِه ، وراحَ ينْظُرُ إليها تارةً ، ويقلّبُ عينَيْهِ فيما حوْلَهُ تارةً أخرى . في السّجن لا تُرْبةَ ولا شمسَ .. وهل يُمكِنُ لزهرة زنبق أن تَنبُتَ في سِجن ؟ ! إذن فقد ضاعت كلُّ الجهودِ التي بذلها طوالَ عِدّةِ أعوام .

ولفّ بصلاتِهِ مرةً أخرى وخبّأها وراءَ لَبِنَة تحتَ السرير .

١٥ . السجين والسجان

في المساء أقبلَ غريفوس يحملُ إلى السجين عشاءَهُ . فتحَ البابَ وتقدّمَ ، وفي إحدى يدَيْه طبَقٌ وفي الأخرى المفاتيحُ ووعاءُ ماء . وقبْلَ أن يَضعَ ما في يدَيْه عثَرَ ووقعَ على الأرض ، وأصيبَ بكسرٍ في ذراعه .

فنهضَ كورنيليوس ليُسْعِفَ السجان ، ولكنّ هذا صاح : « إياك أن تخرُج ! » وحاولَ الوقوفَ ولكنه شعَرَ بألمٍ شديد ، فلم يستطع حَراكاً . وهكذا ظلّ البابُ مفتوحاً ، وكان في وُسْعِ كورنيليوس أن يهرُبَ بكلّ سُهولة ، ولكنّ ذلك لم يَخْطُرْ لَهُ على الإطلاق ، كلّ ما كانَ يفكّرُ فيه هو أن يَبْذُلَ المعونةَ اللازمة للرّجُلِ المصابِ أمامَهُ .

وسَمِعَتْ روزا صياحَ أبيها ، فأقبلَتْ مُسْرِعةً ، ورأتْهُ ممدّداً على الأرض . وأولُ شيءٍ خطَرَ لها هو أنّ والدها أفرطَ في الشّراب كعادته ، وضرَبَ السجينَ ، فردّ عليه هذا بالمثل . ولكنّها سُرْعانَ ما فَهِمَت الحقيقة . فرفَعَتْ نحوَ الشاب عينَيْن مُغْرَورقتين بالدموعِ وقالت له :

« أشكُرُك ! »

فاحمرَّ وَجْهُ الشابّ وقال :

« إنني لا أفعلُ أكثر من واجبي ! »

— « إنهُ لكرمٌ منكَ أن تتناسَى الكلامَ الفَظّ الذي قالَهُ لك هذا الصباحَ ، لهذا أنتَ تستحقّ الشكرَ مضاعفاً ! »

ونظر كورنيليوس إلى الفتاة الصغيرة الجميلة ، ولكنَّهُ لم يجدْ وقتاً للردّ ، لأن غريفوس عادَ إلى وعْيِهِ ، وقال :

« كلّ هذا سببُهُ أنت : حملتُ لكَ العَشاءَ مُسْرِعاً فوقعتُ وكسرتُ ذراعي .. وها أنتَ تتركُني ملقىً على الأرض ! » . قالت روزا :

« أبي أنتَ غيرُ عادلٍ ! فلقَدْ وَجدتُ هذا السَيِّدَ الشابّ منهمكاً في تجبيرِ ذراعِك ! »

غريفوس : « هو » ؟

كورنيليوس : « في استطاعتي أن أشفيَك ! »

غريفوس « أنت ؟ ! وهل أنت طبيب ؟ »

كورنيليوس : « كنت طبيباً في الماضي ! .. هل تستطيعين ، يا آنسة ، أن تحملي إليّ قطعتيْن من الخشب وبعضَ القماش ؟ »

غريفوس : « حسن ! هذا لا يكلّف شيئاً ! .. ساعديني ، يا روزا ، على النهوض . » واستوى غريفوس واقفاً ثم جلسَ على طرف السرير ، وقال لابنتهِ : « ألم تسمعي ما قاله ؟ ! هيّا ! أسرعي ! »

ومَضَتْ روزا ثم عادَتْ بخشبتين وقِطَعٍ من البياض . فقرّبَ كورنيليوس المنضدَةَ من المريض ، وبسَطَ عليها الذراعَ المكسورةَ التي كان قد أعادَ عظمها إلى مكانه ، ثم وضع الخشبتَيْن تحتَها وفوقَها ، ولفَّها بالقماش الذي شدّه شدّاً مُحكَماً ، فأغمي على غريفوس مرّةً أخرى . قال كورنيليوس :

« أعطيني شيئاً من الكحول لأفْرُكَ بهِ وَجْهَهُ ، فيستعيد وَعْيَهُ ! »

فلم تتحرّك روزا ، بل نظرتْ إلى والدِها ، ثم اقتربت من كورنيليوس وقالت له :

« سيّدي ! لقد قدّمْتَ لنا خدمةً جليلةً ، وأريد أن أخدمَك بدَوْري . إنّ القاضي سيطلبُك غداً للتحقيق .. لقد جاءَ اليومَ إلى هنا وألقى بعضَ الأسئلة ، ولما علم بأنك في نفس الحجرة ، التي كان فيها كورنيل دي ويت ، ضحك كثيراً .. إنني خائفةٌ من أجلك ! »

— « وماذا يستطيعُ أن يفعل بي ؟ »

ـ « إنك ترى من هنا جُثتيْ صديقيك ! »

ـ « ولكنني لم أقترفْ أيَّ ذنب ! »

ـ « وهذان المعلّقان هناك ؟ .. هل اقترفا ذنباً ما ؟ »

ـ « هذا صحيح ! »

ـ « ثم إن الجميعَ يعتقدون بأنك رجلٌ شرير ! سوف يُحكَمُ عليك .. والأمور تجري بسرعة في هذه الظروف ! »

ـ « وما العمل ؟ »

ـ « إنني هنا بمفردي ، وأنا فتاةٌ ضعيفة ، ووالدي فاقدٌ وَعْيَهُ ، وهو الذي كَسَرَ ذراعَهُ ، والكلبُ مربوط ، فلا شيءَ إذن يَحُوْلُ بينكَ وبين الهرب ! »

ـ « ماذا تقولين ؟ ! »

ـ « لم أستطعْ إنقاذَ كورنيل وجان دي ويت ، فبوُدّي أن أنقذَكَ أنت ، على الأقلّ ! هيّا ، أسرِعْ ! إنني أرى أن تنفُّسَ والدي بدأ يستقيم ، وخلالَ دقيقة سيستعيدُ وَعْيَهُ ، وعندها لن تستطيعَ النجاة ! »

وراح كورنيليوس ينظر إلى الفتاة كأنَّهُ لم يسمَعْ شيئاً ..

قالت :

« ألم تفهم مني ؟ »

ـ « بلى ! فهمتُ كلَّ شيء ! ولكنني أرفُضُ هذا العَرْض ! لأنك ستُتَّهَمين بأنكِ سَهّلْتِ لي طريقَ الهرب ! »

ـ « لستُ مُهْتَمَّةً بشيء ! »

ـ « أشكرُكِ ، يا صغيرتي ! ولكنني سأبقى حيثُ أنا ! »

ـ « تبقى ؟ ! يا إلهي ! ألَمْ تَفْهَمْ ؟ .. سَيُحْكَمُ عليك .. بالموت .. ! ستُقتل .. وقد يقطّعُكَ الجمهور كما قَطّعَ السيدين جان وكورنيل .. لا تهتَمَّ بي .. أخرُجْ من هذه الحجرة .. إنها شؤم .. كانت شؤماً على السيدين دي ويت ! »

ـ « أنا لم أرتكب ذنباً ! لذا سأنتظرُ قُضاتي ! »

ـ « أصمتْ ! هذا أبي بدأ يستفيق ، ولا ينبغي أن يَسْمعَنا نتحدثُ معاً »

ـ « وما الضرر في ذلك ؟ »

ـ « قد يمنعني من العودة إلى هنا ! »

قال غريفوس فجأةً ، وهو يفتح عينيه :

« ماذا تقولين ؟ »

– « كان الدكتور يشرحُ لي كيف يجبُ أن أعنى بك ! »

– « كفى ! كفى ! .. عليك ألا تدخلي إلى حُجَرِ المساجين ! سيري أمامي ! »

١٦ . حكم بالموت

لم تخطىء روزا في تقديرِها ، فقد مثَلَ كورنيليوس ، في اليوم التالي ، أمامَ القضاة الذين لم يُلْقُوا عليه كثيراً من الأسئلة . ذلك أن الجُرْمَ واضحٌ لا شكّ فيه ، فقد ساعدَ الأخويْن دي ويت على إخفاء الرسائلِ الواردةِ من الحكومةِ الفرنسية .

ولم يمضِ نصفُ ساعة على ذَهابِ القضاةِ حتى جاء إلى السجن ضابطٌ يحملُ نَصّ الحكم . وكان غريفوس محموماً في تلك اللحظة ، فأخذت روزا المفاتيح ، وقادتِ الضابطَ إلى حُجْرةِ المتهَم . ولما أصبحَ أمامَهُ تلا عليه الحكم ، وهو يقضي « بقطع رأس السيد فان بيرل في ساحة بويتنهرف ، في نفس اليوم ! »

واستمع كورنيليوس إلى حكم الإعدام دَهِشاً أكثرَ منه حزيناً . أما روزا فقد كانت تسفحُ الدّمعَ في زاويةٍ من الحجرة . قال الضابط لكورنيليوس :

« هل لَدَيْكَ ما تقوله ؟ »

– « شيء واحد هو : أنني لم أظنّ يوماً أنني سأموتُ على هذا النحو ! .. ومتى سيكون التنفيذ ؟ »

– « في هذا اليوم بالذات ! »

– « وفي أيّ ساعة ؟ »

– « ظهراً ، يا سيدي ! »

– « إذن لم يبقَ أمامي طويلُ وقتٍ ، فقد بلغتِ الساعةُ العاشرةَ ! »

– « العاشرةَ والثلثَ ! .. في إمكانك فقط أن تصلّي وتطلبَ من الله الغفران ! »

قال الضابطُ هذا وخرجَ !

وبعد أن شيّعَتْ روزا الضابطَ حتى الباب ، عادَتْ إلى كورنيليوس ، وقالت وهي تبكي :

« أوّاه ، يا سيدي ! »

– « لا تبكي ، يا روزا ! .. إن بكاءك يؤلمني أكثر

من شبح الموت القريب ! »

— « أفي إمكاني أن أصنع شيئاً من أجلك ! »

— « جففي عينيك الجميلتين ، يا صغيرتي ! »

— « أتريد أن أدعو لك كاهناً ؟ »

— « كلا ! كلا ! .. فلقد أحببت الله طول حياتي ، ولا بد أنه يحبني ، هو أيضاً ! .. ولكن هل تريدين أن تساعديني على خدمته ؟ »

— « بالتأكيد ! تكلم ، يا سيد كورنيليوس ! »

— « أعطيني يدك الجميلة ، وعديني بألا تضحكي مما سأقوله ! »

— « أضحك ؟ ! وهل يمكنني أن أضحك في هذه الساعة ؟ ! ألم تر دموعي ، يا سيدي ؟ ! ألم تنظر إلي ؟ ! »

— « بلى ! نظرت إليك طويلاً ، يا روزا ، ورأيت أنك أجمل وأطيب فتاة وقعت عليها عيناي حتى الآن ! ولكنني سأترك هذا الوجود ولن أراك بعد اليوم ! »

في تلك اللحظة دقت الساعة الحادية عشرة فقال كورنيليوس :

« لنسرع ! فالدقائق تمر عجلى ! »

هنالك أخرج من تحت سريره الورقة التي لف بها بصلاته وقال :

« لقد أحببت الأزهار يوم أن كنت لا أعرف أن أحب غيرها ! لا يحمر وجهك خجلاً ، فبعد ساعة سأفارق هذا العالم ! .. أحببت الأزهار وكرست حياتي لها ، ويقيني أنني توصلت إلى إيجاد زهرة الزنبق السوداء ! لقد خصصت مكافأة قدرها مئتا ألف قطعة ذهبية لمن ينبت هذه الزهرة .. وهأنذا أهبك البصلات الثلاث التي ستعطي تلك الزهرة ، وحلال لك مكافأة المئتي ألف ! »

— « سيد كورنيليوس ! »

— « لا تقولي شيئاً ! .. إنها لك أنت ! .. لقد مات أبي وأمي ، وليس لي أخ ولا أخت .. كما أنني لم أحب قط . كان حبي كله للأزهار ! .. ولكن لي طلباً واحداً هو أن تقترني بشاب تتراوح سنه بين السادسة والعشرين والثامنة والعشرين ، على أن يكون شغوفاً بالزهر . وأرجو أن تطلقي على الزنبقة السوداء اسم « روزا — بيرل » ! أعطيني ورقة لأكتب هذه الكلمات ! »



روزا تقدم الى السجين إنجيلاً

١٧ . ورقة الانجيل الثانية

قَدّمَتْ روزا إلى السجين إنجيلاً وقالت :

« لقد أعطاني إياه كورنيل دي ويت قبل موته ، وها أنا أتركُهُ لك ، لعلّهُ يُعينُك في لحظاتِكَ الأخيرة . أكتُبْ عليه ما شئت .. أنا أجهَلُ القراءة ، ولكني سأكلّفُ مَنْ يقرأ لي ما تأمُرُ به .. هاكَ قلماً ! »

فأخذ كورنيليوس القلمَ وخطّ الكلامَ التالي على الورقةِ الثانية ، لأنّ الورقةَ الأولى تَلَفُ البَصَلات ، كما لا يَخْفى :

« في هذا اليوم ، الثالثِ والعشرينَ من آب عام ١٦٧٢ ، يوم إعدامي ظلماً ، وَهَبْتُ روزا غريفوس ثلاثَ بصلات زنبق . هذه البصلاتُ ستعطي في شهر تموز القادمِ ثلاثَ زنابق كبيرة سوداء . وعلى هذا يجب إعطاؤها مكافأةَ المئتي ألف ذهبية يَوْمَ عُرْسِها . وستطلق على الزنبقة السوداء اسم « روزا — بيرل » . رجائي أن تكون سعيدة في حياتها . » التوقيع : كورنيليوس فان بيرل .

وبعد أن انتهى تلاَ عليها الوصية ، بينما كانت دموعُها تجري على خدّيها

ثم سألها :

« هل أنت موافقة ؟»

— « كلا ! .. إنني لن أحبَّ أحداً ولن أتزوج .»

وهنا سُمِعَتْ خطى رجالٍ يرتقونَ الدرَج . فقالت روزا بصوتٍ باكٍ :

« هاهُمْ قد أتوا ليأخذوك ! يا إلهي ! .. ألديكَ ما تقولُهُ لي بعدُ ؟ »

— « خبّئي بصلاتِكِ ، واعتني بها من أجلي ! وداعاً يا روزا ! »

— « أجل ! أجل ! سأعتنى بها ! » ثم أضافت « ولكنني لن أتزوج ! »

وهنا أقبلَ الضابطُ ومعَهُ عددٌ من الجنود . فاستقبلَهُم كورنيليوس ببشاشةٍ كأنهُمْ أصدقاء . ولما خرجَ أمامهم ألقى نظرةَ وداعٍ على روزا التي كانت تقفُ دامعة العينَيْن ، تضمّ إلى صدرِها بصلاتِه الثمينةَ داخلَ ورقةِ الانجيلِ التي كُتبتْ عليها رسالةُ كورنيل دي ويت ، ولم يقرأها كورنيليوس ، مما أدى إلى الحكم عليه وعلى زهرتِه بالإعدام .

١٨ . من لاهاي الى لوونشتين

خرج كورنيليوس من بابِ السجن ، وأشرَفَ على الساحة التي كانت مزدحمةً بالفضوليين . وما إن رأى هؤلاء صديقَ الأخوَيْن دي ويت حتى راحوا يطلقون الهتافات المعادية ، ويحاولونَ أن يهاجموه وينتقموا منه . ولكنَّ الجنودَ صدّوهُم ودفعوهُ نحو المنصّة التي كانت تنتظرُ رأسَهُ . غير أن كورنيليوس كان ينظرُ دون أن يرى . إنه لم يكن يفكرُ لا في أعدائه ولا قضاتِه ، ولا في ذلكَ الرجُلِ المُخيف الذي كان يقفُ فوق المنصّة وسيفُهُ مجرّدٌ في يده . فيمَ كان يفكر إذن ؟ ! لعله كان يتصور أزهار الزنبق السوداء العجيبة .

وصعد درجات المنصة ، حيث أركعُوهُ في انتظارِ السيف الذي سيَسقُط على عُنُقِهِ بعدَ لحظة . ونظرَ ناحيةَ السجنِ فرأى النافذة ، ولعلّهُ أرسلَ تحيّةَ وداعٍ إلى زهرتِهِ السوداء . ثم أغمض عينيه .

وخُيِّل إليه أن السيفَ التمَعَ مرّتين فوقَ رأسه ، ولكن رأسَهُ ما زالَ في مكانِهِ . وفجأةً رفعَتْهُ يدان عن الأرض ، ففتح عينيْه ، ورأى الشمس . نافذةَ

السجن ما زالتْ أمامه ، والفضوليون ما زالوا يملأونَ الساحة . فماذا حدثَ إذن ؟ الذي حدثَ هو أن الأمير اوف أورنج حفظَ عليه الحياة . وأولُ ما تبادرَ إلى ذهنه أنهم سيُعيدونَه إلى دُورْدْرَشْتْ ، ولكنه كان مخطئاً ، فالأميرُ لم يَعْفُ عنه بل كلّ ما هنالكَ أنه أبدلَ الإعدامَ بالسجن مدى الحياة : إذن فهو سيقضي بقيةَ حياتِه وراء القضبان .. قال في نفسه :

« على كلّ حالٍ لم يَذْهَبْ كلّ أملٍ ، فهناكَ روزا والبَصَلات ! »

غيرَ أنهم لم يُعيدُوه إلى سجنه ، بل أرسَلُوه إلى سجن لوْونشتين ، وهو أحدُ السّجونِ السبعةِ الكبرى في هولندا . فحزنَ كورنيليوس لهذا القرار ، لأنَّ جوّ لوونشتين رطبٌ وتُرْبَتَها غيرُ صالحة لزراعة الزنبق. وفوق كلّ ذلك لن تكونَ روزا إلى جانبه .

١٩ . مصائب بوكستل

لم يكنْ أهلُ الفضول المتجمعون في الساحه راضين عندما رأوا كورنيليوس يوضع في عربة كبيرة ليُرْسَلَ إلى السجن . ولكنّ أكثرَهُمْ غضباً وحنقاً كان ذلك

الجار اللئيم ، إسحق بوكستل .

في ذلك اليومِ ، حضرَ إسحق إلى السجن في الصباح الباكر ، وطلب مقابلةَ السجّان . ولكنّ غريفوس كان مريضاً فلم يستقبلْهُ ، كما أن روزا لم تستمعْ إليه .. قال لها :

« إفهمي مني : إن كورنيليوس صديقٌ لي ، وإنني مستعدٌ أن أدفع كثيراً .. إن المحكومَ عليه بالإعدام يجب أن لا يتملك شيئاً .. سأدفعُ مبلغاً محترماً مقابلَ متاعِه .. أخرِجُوهُ من الحُجْرة ، ودَعُوْني أدخُلُ إليها ! »

ولم تَرُدّ عليه روزا . كلُّ ما هنالك أنها نادت الكلب فتولّى أمرَهُ ، فخرَجَ من هناك وقَفَا سِرواله ممزّق .

وبعدَ أنْ أصلحَ ما خلّفَهُ الكلبُ في قفاه ، ذهَبَ إلى الرّجُلِ المُكلّفِ بدفنِ المحكومِ عليهِم بالإعدام ، وقال له :

« إن فان بيرل هذا هو أحدُ أصدقائي ، فدَعني أتولّى دَفْنَهُ بنفسي ، ولكَ مني خمسُمئةِ قطعة ذهبية . »

– « بل ألْفان ! »

— « لتكن ألفاً وخمسمئة ! »

وفرحَ الرجل لأنه سيحصلُ على مثل هذا المبلغِ الضخم ، ويتخلصُ في الوقتِ نفسِه ، من عناء الدفن . فأجابه قائلاً :

« إتفقنا ! ولكنْ عليكَ أن تدفعَ سلَفاً ! »

ونقدَه بوكستل المبلغَ بالفعل ، ومضى إلى الساحة ، حيثُ وقف في الصف الأول . ولدي وصول فان بيرل أشار بوكستل إشارةً خفية للسياف ، وردّ هذا علَيْه بإشارة مماثلة ، قبل أن يَرْفعَ سَيْفَه ، وكان يعني بهذه الإشارةِ « أنِ اطْمَئِنّ ! »

ولكنّ الأمير أبدَلَ الحكم ، على غيرِ انتظار ، وخسِرَ إسحاق مالَه . وهذا كورنيليوس لا يزالُ حياً .. وسيظل حياً ، ولا بُدّ أنه سيجدُ في السجن مكاناً يزرعُ فيه بصلاتِه التي يحملها معه دون أدنى شك .. وسيُنتج الزنبقة السوداء .

وصرخ بوكستل صرخةً مدويّةً . فظنّ الناسُ ، الذين حولَهُ ، أنه صرخ من الفرح ، فأوسَعوه ضرباً . ولكنّهُ لم يفكّر حتى في الدفاع عن نفسِه ، بل راح يَجري وراء العربةِ التي حملت كورنيليوس . ولما أنهكَهُ التعبُ تعثّرَ ، فوقعَ على الأرض ، وتمزقَتْ

ملابسُهُ ودَمِيَتْ كفّاهُ وذِراعاه

٢٠ . حمامات دوردرشت

كانت حُجرةُ كورنيليوس ، في سِجنِه الجديد ، في الطبقةِ العُليا ، تحت السطحِ مباشرةً . وكانت تمتدّ تحت نافذَتِه مناظرُ خلاّبة . ولكنه ، عندما يقفُ بالقرب منها ، تسرَحُ أنظارُهُ بعيداً بعيداً .. نحو دُوْرْدْرَشْتْ ، وخاصة نحو لاهاي ، حيث خلّف روزا وبَصَلاتِه الثلاث . لقد أصبح مِحْوَرُ أفكارِه امرأةً وزهرة ! وكثيراً ما كان يردّدُ بينه وبين نفسِه بيأس ولوعة : « لقد فقدَتْهما إلى الأبد ! »

ولكنه كان مخطئاً ، لحسن الحظ . فذات صباحٍ مشرقٍ بهيج ، رأى عدداً من الحمام مُقْبلاً مِن دُوْرْدْرَشْتْ . كانت الحماماتُ متّجهةً نحو السجن ، وما إنْ وَصلَتْ إليه حتى حطّتْ على سطحِه . وفكّرَ كورنيليوس أن الحمامات لا بُدّ أن تعودَ إلى بيوتها في دُوْرْدْرَشْتْ ، فإذا كتبَ ورقةً وربطَها في جناحٍ أو رِجْلِ واحدةٍ ، فقد تقَعُ الحمامةُ في يدِ صديق .

وفي الحال راح يَرْمي قِطَعَ الخبزِ للحمامات ، التي

أقبلتْ تلتقطُ الخبزَ بنهمٍ . وصارَ يفعلُ ذلك كلَّ يوم ، والحماماتُ تزداد اطمئناناً إليه واقتراباً منه ، وبعدَ مُضيِّ شهر على ذلك تمكّنَ من إمساكِ إحداها . ثمّ قضى شهرَيْن آخرَيْن حتى قَنَصَ ذَكَراً . فوضعَ الاثنين معاً تحت السقف ، فبنَيَا عُشّاً ، وباضا فيه .

وفي مَطْلَعِ عام ١٦٧٣ ، كتب رسالةً على رُقعة ورق رقيقة ، وربَطَها تحت جناحِ الأنثى ، التي ما إن أطلَقَها حتى طارت فَرِحةً إلى دُورْدْرَشْت . ولكنها عادت في المساء والرسالةُ ما زالت في مكانها .

ظلّتِ الرسالةُ تحت جناح الحمامةِ خمسةَ عشرَ يوماً ، ولكنها اختفَتْ في اليومِ السادسَ عشرَ . وكانت تلك الرسالةُ موجَّهةً إلى خادمتِهِ العجوزِ وفيها كلمةٌ إلى روزا .

كانتِ الخادمةُ تحبُّ الطيور . وكانت دائمةَ العناية بالحمام الذي يُربّيه سيّدها . وذاتَ يومٍ رأتْ حمامةً غريبة ، ولفتَ نظرَها وجودُ ورقة تحتَ جناحِها . فجذَبَتْها إلى المنزلِ بواسطة الحمام ، وأمسكَتْها واطّلعَتْ على الرسالة ، التي حمَلَتْها في الحال إلى روزا .

وفي مساء يومٍ من أيامِ شُباط ، سَمِعَ صوتاً خارجَ الحجرةَ يَعْرِفُهُ جيداً ، فدَقَّ قلبُهُ . وما هيَ سوى

لحظات حتى فُتِحَتْ كُوّةُ الباب ، وظَهَرَ وراءها رأس ! يا لَلسّعادة : إنها روزا ! قالت روزا :

« ها أنا قد جئت ، يا سيدي ! »

فمدَّ كورنيليوس ذراعَيْه ، وصاحَ ، وهُوَ في قِمةِ الفرح :

« روزا ! روزا !

— « إخْفِضْ صوْتك ! إنّ والدي قريبٌ من هنا ! »

— « والدك ؟ ! »

— « أجل» .

— « إنه في الفِناء ، أسفل الدرَج ، وسيصعد عما قليل ! »

— « وما الذي أتى به إلى هنا ؟ »

— « لقد تمكنتُ من مقابلةِ الأمير أوف أورنج ، ورجوتُه أن ينقُلَ والدي إلى هنا ! وقد ابتسم لي الأميرُ ولاطفَني واستجابَ إلى طلبي :

— « إذن سأراكِ كلَّ يوم ؟ ! »

— « بقَدْرِ الإمكان ! »

— « روزا ! روزا ! أيتها العزيزة ! .. أتحبينني قليلاً ؟ »

— « قليلاً ! .. قليلٌ ما تطلبه ، يا سيد كورنيليوس !.. ولكن حذارِ .. ها هو والدي ! »

وجـرَت الفتاةُ نحو والدِها ، وقالت له :

« لقد صعدتُ إلى السطح ! .. هناك مناظرُ في غاية الجمال ! »

٢١ . لا شيء للسجين !

ودخل غريفوس إلى حجرة كورنيليوس ، وقال له :

« إنني سجّانُكَ الجديد ، أيها السيد ! إن حياتَكَ لن تكونَ سهلةً معي ! أنا لستُ رَجلاً خبيثاً ، ولكنّي مفتّحُ العينين ، لا تَخفى عليّ خافية ، ولا أحدَ من من سُجَنائي يستطيعُ الهرب !»

قال كورنيليوس :

« ولكني أعرفُكَ تمامَ المعرفة ، يا سيد غريفوس ! »

— « يا لها من صُدفة ! أهذا أنتَ ! يا سيد فان بيرل ؟ ! ها نحن نلتقي مرةً أخرى ! »

— « إنني جدٌ سعيد ، يا سيد غريفوس ! أرجو أن تكون ذراعُكَ قد شُفيت ! »

— « لقد جبّرْتَها لي بمنتهى المهارة ، فبعدَ ستة أسابيعَ كنتُ أستخدمُها كما في الماضي تماماً . أنتَ رجلٌ خطِر ! .. على المرء أن يكون حذِراً في معاملةِ العلماء ! »

— « سيد غريفوس ! لقد خطَرَ لي في البدايةِ أن أهرُب ، ولكنْ ثِقْ أنني لا أفكرُ الآنَ في هذا على الإطلاق ! »

— « أنتَ صديق لآل دي ويت ، لهذا سأكونُ قاسياً معَكَ ! »

واقتربَ كورنيليوس من النافذة . كان الضبابُ يلفّ كلَّ شيء . قال غريفوس :

« ماذا ترى من هنا ؟ »

أجاب غريفوس وهو ينظر إلى روزا : « مَشاهدَ جميلة ! »

— « إنها كثيرةٌ على سجين ! »

وفي هذه اللحظة خافت الحمامتان ، فغادرتا عُشّهُما ، وطارتا .

وسأل غريفوس دَهِشاً :

« ما هذا ؟ »

– « زوجٌ من الحمام أربّيه ! »

– « تُربّي حماماً ؟ ! تربّي حماماً ؟ ! وهل لسجينٍ أن يملكَ شيئاً ؟ ! غداً سأذبحها ! »

وأطلّ غريفوس من النافذة ، فاغتنَمَها كورنيليوس فرصةً ليَشُدَّ على يدِ روزا . قالت هذه :

« هذا المساء .. في التاسعة ! »

ولم يرَ غريفوس أو يَسْمَعْ شيئاً ، لأنَّ الحمامتَيْن كانتا تَشْغَلانِ بالَهُ . فأغلَقَ النافذةَ ، وأخذ ابنتَهُ من ذراعِها ثم خرَجَ ، وأقفَلَ الباب ، وتحوّلَ إلى سجينٍ آخر

أما كورنيليوس فقد عَمَدَ إلى إتلاف العُشّ حتى يُنْقِذَ الحمامتَيْن من الذّبح . ولبِثَ بعدَ ذلكَ ينتظرُ الساعةَ التاسعةَ

في الوقت المحدّدِ سَمِعَ خُطى الفتاةِ خفيفةً على الدّرَج . ثم فُتِحتِ الكوةُ ، وظهرَتْ روزا . قالت له :

« ها قد حضَرْتُ ! »

– « ما أكرمَكِ ، يا عزيزتي ! »

– « هل أنتَ سعيدٌ برؤيتي ؟ »

– « أوتَشُكّينَ في هذا ؟ .. ولكنْ كيف استطعتِ أن تأتي ؟ »

– « إن والدي يغرقُ في النوم ، بَعْدَ العشاءِ مباشرةً ، لأنه يَشْرَبُ أكثرَ مما ينبغي .. ولكنْ لا تُخبِرْ أحداً بهذا ! .. وبفضل نومِهِ العميقِ أستطيعُ أن آتيَ كلَّ مساء لأتحدّثَ إليكَ ساعةً من الزمن ! »

– « كم أنا شاكرٌ لكِ عطفَكِ ، أيتها العزيزة ! »

– « لقد جئتُكَ ببَصَلاتك ! »

– « جئتِ بها ؟ ! »

– « صحيحٌ أنكَ وهَبْتَني إياها ، ولكنّها ما زالَتْ مِلْكاً لك ، وكنت أفكّرُ كيفَ أعيدُها إليك . »

– « أكنتِ تفكّرينَ في ذلك قبل أن تتسلّمي رسالتي ؟ »

– « كنت أفكرُ فيك ! »

وامتلأت نفس كورنيليوس بالعاطفة نحو تلك الفتاة الطيبة الرائعة ، فحاول تقبيلها ، ولكنّها انطلقَتْ خَجِلَةً ونسيَتْ أن تُعيدَ إليه البَصَلات

٢٢ . المعلم والتلميذة

لم يكن في سجن لوونشتين سوى خمسة من السجناء ، لهذا كان عمل غريفوس محدوداً . وكان كثيراً ما يتساءل عن سببِ إرسالِه إلى هذا المكان ، وهو السجّان البارع ، ليقومَ بمهمة تافهة كالمهمّةِ التي أوكِلَتْ إليه . وأخيراً خُيِّلَ إليه أنه عرَفَ السبب .. قال في نفسه :

« لا بُدَّ أن هؤلاء السجناءَ يُخشى خطَرُهم .. وخاصةً هذا العالِم ، فان بيرل ، فلأحترِسْ منه ! »

بعْدَ هذا أصبحَ يَدْخلُ ثلاثَ مرات ، في اليوم ، إلى حُجرة كورنيليوس . ولكنَّ هذا لم يَعُدْ في حاجةٍ لا إلى الحمام ولا إلى كتابةِ الرسائل ، فروزا بجانبه وبَصَلاتُه ، التي ستُنْبِت الزنبقة السوداء ، في حوزته .. إذن فلا شيء يعوزُه .. وحتى لو فُتِحَ له بابُ السجن على مِصراعَيْه لما تخطّى عَتَبَتَه .

في الليلةِ التاليةِ لأوّل اجتماعٍ بين كورنيليوس وروزا ، جاءتْ هذه في نفسِ الموعد . وكان أول ما فعلتْه أنها مدّتْ يدَها إلى كورنيليوس وفيها البصلات التي ما زالت في ورَقتها . فدفع كورنيليوس برِفقٍ تلكَ اليد

البضاءَ الصغيرة ، وقال :

« إسمعي ! إنّ في وجود البَصَلات عندي لخطَراً عليها ، وهي ، كما تعْلَمين ، هامّةٌ جداً .. لهذا علينا أن نتصرّف بحذرٍ وحكمة . »

– « أشِرْ بما تريد ! »

– « هل توجَدُ في هذا السجن حديقةٌ صغيرة ؟ »

– « نعم ! هناك بستان جميل . يقوم على ضِفّة النهر ، ويَمتَلىء بالأشجارِ الباسقة ! »

– « أرجو منكِ ، يا عزيزتي ، أن تحملي إليّ شيئاً من ترابه لكي أفحَصَهُ ، وأتأكّدَ من جودته . »

– « سيكونُ التّرابُ عندكَ غداً ! »

– « حَسَناً ! خذي حَفْنَةً من الترابِ الذي في الظّلّ وأخرى من ذلك المُعرَّضِ للشمس ، لأنني أريدُ فحصَهُ رَطْباً وجافاً . قد نُضْطَرُّ إلى مَزْجِ التّراب بتُراب آخَرَ .. سأعلّمُكِ كيف تُعِدّينَ التّربة .. وفي الوقتِ الذي سأعيّنَهُ لكِ تَزْرَعينَ إحدى البَصَلاتِ في البستان ، وتَحْرُسينها .

– « لن أغفلَ عنها لحظةً واحدة ! »

– « وسأحاولُ أنا تربيةَ البَصَلةِ الثانيةِ هنا ، في

حُجْرتي ، فالشمسُ تَدْخُلُ من النافذة .. أما الثالثةُ فسنحتفظُ بها ، خَشْيَةَ أن يُصيبَ البَصَلتينِ الأُخْرَيَيْنِ مكروهٌ ما ! »

— « لقد فَهِمْتُ ! سأحْمِلُ التّرابَ غداً .. ولكنني لن أستطيعَ أن أحمِلَ منه سوى القليل . »

— « لسنا في عَجَلة من أمرِنا ، أيتُها العزيزةُ ! فما زالَ أمامَنا شهرٌ كاملٌ . »

٢٣ . الدرس الثاني

في اليومِ التالي حَمَلَتْ روزا بَعْضَ التّراب . فطلَبَ منها كورنيليوس أن تأتيَ في المَرّةِ القادمةِ بترابٍ من مكانٍ آخرَ . ثم قالَ لها :

« هل أنتِ مستعدّةٌ لأن تَتْبَعي كلَّ تعليماتي ؟ »

« إنني أعدُكَ بذلك ! »

— « عندما تزرعين البَصَلةَ عليكِ أن تتحدّثي إليَّ عن كلّ ما يُحيطُ بِرَبيبَتِنا هذه .. عن الجوّ والريح ... وتقولي لي إن كانت تأتي قِطَطٌ إلى هذا المكان .. فقد أصابَتْ هذه الحيواناتُ الشّقيّةُ أزهاري في

دُورْدْرَشْت بأضرارٍ جسيمة . »

— « سأهتمّ بطردِ جميعِ القِطَط ! »

— « هل تستطيعينَ أن تَرَيْ البستانَ في الليالي المُقْمِرة ؟ »

— « إن نافذتي تُطِلّ عليه مباشرةً ! »

— « حسناً ! في الليالي القَمَرِيّةِ راقِبي مَسْكَبَتَكِ ، فقد تَقْفِزُ إليها الجرذانُ من شُقوقِ الجُدْران ، فالجِرذانُ ضارّةٌ إلى أقصى حدّ . »

— « سأراقبُ الجرذان أيضاً ! »

— « ثم هناك حيواناتٌ أخطرُ بكثيرٍ من القِططِ والجِرْذان (لقد علّمَتْ أيامُ السجنِ كورنيليوس الشيءَ الكثير) ! »

— « وما هيَ هذه الحيوانات ؟ »

— « البَشَر ، يا عزيزتي ! .. هناك من يَسْرِقونَ قِطْعَةً من النقد ولو ذَهَبوا إلى السجن .. أفلا يَقْتُلون من أجل مئتي ألفِ قطعةٍ ذهبية ؟ ! »

— « لا أحدَ غيري يَدْخُلُ إلى البستان ! »

— « أتَعِدينَني ألاّ تَدَعي أحداً يَدْخل ؟ »

— « لكَ عهدٌ مني ! »

– « شكراً لكِ ، يا عزيزتي روزا ! إنكِ ستكونينَ مَصْدَرَ سعادتي ! »

واقتربَ بشفتَيْهِ من بين قُضبانِ الكُوَّةَ ، فأبعدَتْ خدَّها ، وقالت :

« أوه ! لقد بلَغت الساعةُ العاشرةَ .. خُذْ ! »

ومدّتْ يدَها بإحدى البَصَلات الثلاث ، فقبَّلَ رؤوسَ الأصابعِ الناعمة . أقبَّلَها لأنها تحمِلُ بَصَلةَ الزنبقة السوداء ، أم لأنها أصابعُ روزا ؟ ! من الصعبِ الإجابةُ على ذلك !

وهبطتْ روزا وهي تَضُمّ إلى صدرِها البَصَلتَيْن الأُخرَيَيْنِ بمنتهى الغِبْطة . فهل كانت تَضُمُّهُما لأنهما تُنتجانِ الزنبقَ الأسودَ العظيم ، أم لأنهما آتيتانِ من كورنيليوس فان بيرل ؟ ! لعلَّ الإجابةَ عن هذا السؤال أسهلُ من الإجابةِ عن السؤالِ الأول .

٢٤ . اول بصلة تزرع

قضى كورنيليوس شهراً في إعداد التّراب الملائم . وفي أوائلِ نَيْسانَ زرعَ بَصَلتَهُ الأولى في أَصِيْصٍ ، داخلَ حُجْرتِهِ . وبدأ يعيشُ في جوٍ من الخوف

والتوجّس ، لأنه كان مُضْطَرّاً إلى إخفاءِ أصيصِه عن عَيْنِ السّجّان ، عِدّةَ مرات ٍ كلَّ يوم .

وكانت روزا تأتيهِ كلَّ ليلة ، وتقفُ أمامَ بابِهِ فيحدّثُها عن زَهْرَتِه ، كما يحدثها عن أشياء أخرى . ولكنه كان يعودُ دائماً إلى حديثِ الزنبقة السوداء ، ويردِّد القول :

« إنني أخشى والدَكِ ، فهو لم يتعوّدِ العنايةَ بالأزهار ، ثم إنه قد يكونُ غير راضٍ عن مُقامِهِ في لوونشتين ، ولهذا قد يَطْلُبُ نقلَهُ إلى سجنٍ آخر ، فماذا يَحِلُّ عندئذ بنا ؟ ! ماذا تنفعُنا الحماماتُ الزاجلة ، وأنت لا تقرأين ، وأنا لا أجرؤ على الكتابةِ إليكِ لتدريبكِ على العنايةِ بالزنبقة ، خوفَ أن يقرأ الآخرونَ لكِ الرسائل ، ويطّلعوا على ما أنا حريصٌ على إخفائِهِ عن الناس ؟ ! »

فابتسمتْ روزا وقالت :

« إذن لنستخدمْ هذه الساعة ، التي نَقْضيها معاً كلَّ يوم ، في شيء مفيد ! »

– « إننا ، في الحقيقة ، لا نُضيعُها عبثاً ! »

– « لنستخدمْها بأفضلَ مما نفعل .. علّمني القراءةَ والكتابة .. وهكذا نستطيعُ أن نتحدّثَ في غيرِ الزراعة ! »

– « إنها لفكرةٌ رائعة ! »

– «متى نبدأ ؟ »

– «حالاً ! »

– « كلا ! بل غداً ، فلقد حان وقت ذهابي ! »

– « ولكنْ في أيِّ كتابٍ سنقرأ ؟ »

– « لديَّ كتابٌ سأحملهُ معي غداً .. إنه يَحْملُ لنا الحظَّ الحسن ! »

في الليلةِ التاليةِ جاءت روزا ومعَها إنجيلُ كورنيل دي ويت . كانت الكُوَّةُ عاليةً ، فحملت روزا مَقْعَداً خشبياً ووقفَتْ عليه لتصبحَ في المستوى المطلوب ، وجعلتِ القنديلَ فوقَ الكتاب ، الذي راحت تُنَقِّل إصبعَها عليه .

كان القِنديلُ يضيء وَجْهَها الأبيضَ الموردَّ وعينَيْها الزرْقاويْن وشَعْرَها الأشقر ، الذي كانت خُصلاتُه تداعبُ وَجْهَ كورنيليوس القريب .
وراحت روزا تتقدَّمُ بسرعةٍ فائقة .

٢٥ . هناك من يتسمع

وفي إحدى الأماسي وصلتْ روزا بعدَ موعدِها بنصف ساعة .

قالت وهي تعتذرُ لكورنيليوس :

« أنا متأسفةٌ لتأخري ! .. إن لوالدي صديقاً الآن .. هذا الرجل جاء إلى لاهاي منذ مدة وطَلَبَ مني ... على أيِّ حال طَرَدْتُهُ بواسطة الكَلْب . ولكنَّه هنا يَحملُ معه مشروبات .. وأنت تعرف أن والدي يُحِبّ الخمر .

– « لا بدَّ أن هناك إذن سبباً آخرَ لتردُّدِهِ على والدك ! »

– « سببٌ آخر ؟ ! »

– « قد يكون هذا الرجلُ طامعاً في الزواجِ منك ! »

– « هذا ممكنٌ ! .. ولكنَّهُ في لاهاي ، تحدَّثَ عنكَ أنتَ بالذات ، وهنا يبدو وكأنه لا يعرفُك على الاطلاق . وقد لاحظتُ شيئاً آخر . فأمسِ كنتُ أعمل في المَسْكَبَةِ التي أعدَّها لزرْعِ البَصَلَة الثانية ، وهي مكشوفةٌ للشمس ، فرأيت ظِلاً ورائي خَلْفَ الأشجار ..

وعَرَفْتُ أنه ظِلُّ هذا الرجل . لقد كان يتابعُ جميعَ حركاتي .

– « لا شكَّ في أنه يُحبُّك ! .. هل هو شابٌّ وجميل ؟ »

قال كورنيليوس هذا ونظَرَ إلى روزا بانتباه .. قالت هذه :

– « شابٌّ ؟! جميل ؟! .. إنه في غايةِ الدّمامة ، وهو يسيرُ مُنْحَنياً ! .. أما سِنّهُ فتبلُغُ الخمسين .. إنه لا يجرؤ على النظرِ إليّ ! »

– « وما اسمه ؟ »

– « يعقوب جيزيل ! »

– « إنني لا أعرفُ رَجُلاً بهذا الاسم ! .. ولكن ، يا روزا ، لا يَسعُ مَنْ يراكِ إلا أن يَقعَ في حُبّكِ ! .. هل تحبّينَهُ أنتِ ؟ »

– « كلا ! .. ولكنْ .. قلْ لي كيف زهرتُك ؟ »

– « إنني سعيدٌ في هذا اليوم : لقد ظهرَ منها رأسٌ أبيض .. سوف تَخرج النبتةُ عما قريب . »

– « وأنا ؟ .. متى أغرسُ بصلتي ؟ »

– « سأقولُ لكِ ذلك في الوقت المناسب ! .. ولكنْ إياكِ أن تخبري أحداً بهذا ! وأوْصيكِ ، بصورةٍ خاصة ، أن تحافظي على البصلةِ الثالثة ! »

– « إنها ما زالت في الورقة التي لَفَفْتَها بها أنت .. وقد وَضَعْتُها في خزانتي بين الملابس الداخلية . »

– « ولكنْ .. ما بكِ ، يا عزيزتي ؟ »

– « لقد سمعتُ حركة ! »

– « ماذا ؟ »

– « سمعتُ خطى على الدرج .. وهي ليست خطى والدي ! »

– « من المحتمل أن يكون هذا هو يعقوب ! »

وانحدرت روزا بخفةٍ وسرعة ، فسمِعَتْ باباً يُغْلَق .

٢٦ . السجان الشرس

في صباحِ اليومِ التالي ، جلس كورنيليوس يتأمّلَ البُرْعُمَ الذي خرَجَ من البصلة ، ولم يَعُدْ مُجرّدَ



نقطةٍ بيضاء .

كان يَشْعُرُ بلذةٍ عارمةٍ ، وسعادةٍ ضافية ، بحيث ذُهِلَ عن كل ما حوله ، فلم يسمَعْ وَقْعَ خُطى السجان غريفوس الذي كان يرتقي الدَّرَجَ قادماً إلى حُجرته ، للقيامِ بمُهِمّتِهِ الاستطلاعية . وهكذا فُتِح البابُ فجأة ، قبل أن يتمكنَ كورنيليوس من إخفاء أصيْص الزنبق ، كما كان يفعلُ قبل ذلك . ولما رأى السجانُ الكهلُ سجينَهُ جالساً على الأرض ، وعلى حُجْره أصِيْصُ زهر ، هاج كالثور ، وهجم على كورنيليوس ، لينتزع الأَصِيْصَ من بين يديه ، وهو يصيح :

« ما هذا الذي معك ؟ »

أجاب كورنيليوس وهو يرتجفُ خوفاً على الزنبقة :

— « أنا ؟ ! لا شيء ! لا شيء ! »

— « أصيص ! وتراب ! .. ماذا يعني كل ذلك ؟ »

— « عزيزي السيد غريفوس ، لا تَمَسَّها ! هذه ... هذه ... »

وكانت أصابعُ غريفوس قد غاصَتْ في التراب ، فصاح كورنيليوس :

السجّان يسأل كورنيليوس : ما هذا الذي معك ؟

« سيدي ! سيدي ! مَهْلاً ! »

وبحركة سريعة يائسة ، أبعد أصيصه عن السجان . فاندفع هذا نحوَه وهو يرفعُ عصاه ، ويصيح مزمجراً :

« هاتِ هذا الأصيص ! »

— « دَعْه لي ! إن فيه زنبقة . »

— « زنبق ! زنبق ! إن السجناء يبحثون دوماً عن وسيلة للهرب ! »

— « ولكن هذه زهرة ! »

— « أعطِني هذا الأصيص ، وإلا ناديت الجنود ! »

— « لن أعطيَك إياه ! إنني أفضلُ أن أموتَ دونه ! »

ولكن غريفوس تمكّنَ من وَضْعِ يده في الترابِ من جديد ، وفي هذه المرة انتزعَ البَصَلة السوداء ، وقذفَ بها على الجدار ، ثم سَحَقَها تحت نعله .

ومرّت في رأس ذلك الشابّ المسالمِ الوديع ، كما يلتمعُ البرقُ ثم يختفي ، فكرةُ قَتْلِ هذا الرجلِ الخبيث ، فرفع الأصيصَ بما فيه من تراب ، لم يَعُد بذي فائدة ، ليحطّم به رأسَ غريفوس . ولكنّ يدَيْه توقّفتا ، أو قلْ جمدَتا ، إذ سمعَ صرخةَ روزا التي خفّت إلى الوقوفِ بينه وبينَ والدها .

فألقى كورنيليوس الأصيصَ على الأرض وقال ، والألمُ يعتصرُ قلبَهُ :

« يا لَكَ من رجلٍ شرّير ! لقد انتزعتَ من يدِ سجينٍ مسكينٍ سعادتَهُ الوحيدة ، وهي زهرةٌ يمنّي بها نفسَه ! »

وقالت روزا لأبيها :

« هذا عمل سيّىء ، يا أبي ! »

فردّ عليها بغِلْظةٍ :

« إخرسي .. أنتِ ! .. إنزلي حالاً ! »

وظل كورنيليوس يردّد :

« يا لكَ من شقيٍ ! يا لك من شقي ! »

قال غريفوس :

« لقد حذّرْتُكَ قبل الآن ! .. أنا لستُ صديقاً للجمهورية ، بل صديق للأمير أوف أورنج . »

— « ليتَوَلَّ اللهُ عقابَكَ على ما جنَتْ يداك ! »

وهمست روزا في أذُنِ كورنيليوس قائلةً :

« سنزرعُ البصلةَ الثانية غداً ! »

ثم سارتْ وراء والدها .

٢٧ . انت لا تحب الا الزنبق !

وعادت روزا ليلاً إلى كورنيليوس ، وابتدرته قائلة :

« إن والدي سيسمحُ لكَ بزراعة الزنبق ! »

— « وكيف عرفتِ ذلك ؟ »

— « لقد قاله بنفسه ! »

— « وما الذي جعله يغيّر موقفه ؟ »

— « السيد يعقوب هو الذي لامه على فعلتِهِ ! »

— « السيد يعقوب ! .. إذن هو يلازِمُكم دائماً ، هذا السيد يعقوب ! »

— « إنه باستمرارٍ مع والدي . وقد سمعكَ تصرُخُ هذا الصباح . وروى له والدي كلّ ما حدث ، فشحُبَ وجهُهُ ، وشدّ قبضتَيْهِ كأنه يريدُ أن يضرِبَ والدي ، وصاح بغضب : « إذن سَحَقْتَ البصلة ؟ ! كيف تجرأتَ على ذلك ؟ » وأجاب والدي : « ولِمَ لا أتجرأ ؟ » فازداد هياجاً وصرخ : « أوَ تُقْدِمُ على مثل هذا العمل ؟ ! أنت رجلٌ مجرم ! »

فردّ والدي بدهش : « أأنت مجنونٌ أيضاً ؟ ! »

قال كورنيليوس :

« إن يعقوب ، هذا ، رجلٌ طيب ! »

واستطردت روزا قائلة :

« لقد تحدّثَ إلى والدي بقسْوة ، وكان يردّد : « سُحقتِ البصلة ! .. سُحِقَتْ ! .. يا إلهي .. يا إلهي ! .. سُحِقَتْ ! » ثم استدار نحوي وقال : « ولكنّها ليست الوحيدة ، فهناك بَصَلتان غيرها ، أليس كذلك ؟ »

— « أألقى عليكِ هذا السؤال ؟ »

— « نعم ! وقد أجاب والدي بأنه سيبحثُ عنهما غداً ، وسيَصِلُ إليهما ! .. ثم تقدّم السيد يعقوب مني وسألني : « ماذا قال هذا السجينُ المسكين ؟ » فلم أردّ عليه ، وتولى ذلك والدي فقال : « لقد تولاه غضبٌ جنونيّ ! .. يبدو لي أنكم جميعاً مجانين ! ... فأيّ ضيْرٍ في سحق بصلة ؟ ! .. في وُسْعِ المرء أن يشتريَ المئات بقطعةِ فضة ! .. » فقلت : « هذا صحيحٌ ، ولكنْ قد تكونُ هذه المئاتُ أقلّ قيمةً ، في نظرها ، من البَصَلةِ المسحوقة ! » . ولاحظتُ فوراً أنني قلتُ ما لا يجبُ أن يقال . فلقد رأيتُ يعقوب ينظرُ في عينيّ مباشرةً

ويسألني : « هذه البصلةُ مرتفعةُ الثمن ، أليس كذلك ؟
فأجبت : « لستُ أدري ! ولكنّ جميعَ السجناء
يحبّون أن يَشغَلوا أنفسَهُم بشيء ما .. ومن الظلمَ
حرمانُهم مما يُسلّيهم ، ويخفّفُ عنهم ما هُمْ فيه
من كَرْبٍ وبلاء ! » وقال والدي : « كيف حصل
على هذه البصلة ؟ ! .. يجبُ أن أعرف ! » ومن
جديد نظر السيد يعقوب داخلَ عينيّ ، محاولاً أن يقرأ
فيهما ما يريدُ أن يعرف . فأدرْتُ له ظهري ، وسِرْتُ
نحو الباب . وسمعتُهُ يقولُ لوالدي : « فتّشْ في
أمتعتِه ! في العادة تكون هناك ثلاثُ بصَلات .. إذن
فقد بَقِيَتْ في حَوْزَتِه بصَلتانِ اثنتان .. أخرِجْهُ
غداً من الحُجرة ، ودَعْني أتولى التفتيشَ عنهما مكانَكَ ،
ولسوف أجدهما بالتأكيد ! »

— « أوَ قال ذلك ؟ ! .. ولكنْ ، أليس هو نفس
الرجلِ الذي تعقّبكِ إلى البستان ، يا روزا ؟ ! »

— « إنه هو عينُهُ ! »

— « روزا ! هذا الرجلُ لا يتبَعُكِ لأنه يُحبّكِ ،
بل لأنه يطمع في زنبقتي ! .. تحدّثي أمامَهُ غداً ،
أثناء الفطور ، بأنكِ تريدينَ أن تذهبي للعمل في البستان .
ثم اذهبي إلى هناك واقلبي التربةَ ، وأعيديها ، ثم
تظاهري بأنك زرعتِ شيئاً فيها . وبعد ذلك اخرجي

من البستان ، وراقبي من وراء الباب ، ولا بُدّ أنه
سيأتي للبحث ... »

— « وبعد ؟ »

— « بعد ذلك ، يا روزا ، سيكون عليك ألا تغمضي
العينَ عن الزنبقة لحظةً واحدة ، حتى أثناء الليل ..
ويبدو لي أننا لا يجبُ أن نرى بعضنا ! » وأخذت روزا
تبكي . ثم قالت :

« لقد فهمت ! أنت لا تحبّ إلا الزنبق ! .. إن
حب الزنبق ملأ قلبك فلم يَعُدْ فيه مكانٌ لحب آخر ! »
قالت هذا وانطلقت جاريةً .

تلك الليلةُ كانت أتعسَ ليلة مرّت على كورنيليوس .
كان همّهُ لا يُحدّ : فمن المحتمل أن يُحرَمَ نهائياً من
روزا ومن الزنبقة السوداء . ولعلك تَعجَبُ إذا علمتَ
أن ألمه لفقدان روزا كان أكبرَ من ألمه لفقدان الزنبقة :
لقد حلّت العينانِ الزرقاوانِ محلّ الزنبقة السوداء !

٢٨ . امرأة وزهرة

راحت روزا تُرسِلُ الدموعَ في حجرتها . وكانت
تقول : « إن كورنيليوس رَجُلٌ عالمٌ .. لقد كان

غنياً .. وهو ابنُ تاجرٍ كبير .. إنه يعتبرُ نفسَهُ فوق الرجالِ الآخرين .. من الممكن أن يَجِدَ بعضَ اللذة في رؤيتي .. ولكنْ لو خُيِّرَ بيني ، أنا بنت السجانِ الفقير ، وبين الأزهارِ الجميلة ، لاختارَ الزهرةَ ، وفضّلها عليَّ ! »

وهكذا قرَّرَتْ ألا تعودَ إلى الكُوّة مرّةً أخرى . وحاولتْ ، من غدها ، أن تنسى كورنيليوس ، فعكفَتْ على القراءةِ والكتابة ، طَوالَ اليوم ، وبدأتْ تتقدَّمُ بسرعة .

ولكنها كانت تقرأ على الصفحة الثانية من الكتابِ المقدّس تلك الوصية التي كتبها لها كورنيليوس بخصوص الزنبقة السوداء « روزا — بيرل » . وكانت في كل مرةٍ تكرِّرُ قولها :

« لقد كان يُحبّني في ذلك الوقت ! »

ومع ذلك لم تشأ أن تؤلم كورنيليوس ، وتملأ نفسَهُ باليأس ، فعزمت ، بعد ثمانيةِ أيام ، على أن تحمل إليه أنباء عن زنبقته .

أما كورنيليوس فكان لا يهدأ له بالٌ لا في الليل ولا في النهار . كان دائمَ اللوم لنفسه ، على الكلام السخيف الذي قاله لروزا . وكان يتساءلُ كيف أمكن له أن يتحدّث إليها بمثل تلك الغباوة ، ويطلب

إليها أن تمتنعَ عن مقابلته ، في سبيل حمايةِ زنبقة !

كان كورنيليوس يسمعُ من حُجرته دقات الساعة . وفي كل مساء كان ينتظرُ الساعةَ التاسعة .. ثم تَدُقّ التاسعةَ والربع ، فالتاسعة والنصف .. ثم تنقضي فترة الاجتماع ، وتدقّ الساعة العاشرة ، موعد الانصراف ! وكان يقول لنفسه : « لن تأتيَ بعد الآن ! .. إنها على حق ، ولو كنتُ في مكانها لما فعلتُ غير ما تفعل! »

ثم يُنصت وينتظر .. ويطولُ ليلُهُ الحزين .. ثم يأتي النهار .. فاذا ما بلغت الساعةُ الثامنةَ سمع وَقْعَ أقدام السجان ، وسمع الباب يُفتح .. ولكنه لا يلتفت .

وفي المساء التالي كان ينتظر روزا من جديد ، وروزا لا تأتي . ويقولُ في نفسه إن والدها هو الذي يمنعُها من المجيء ، دون أيّ رَيْب . وتخطرُ لهذا الزرّاعِ اللطيف المسالم أفكارٌ خبيثة : يَخطُرُ له أن يَقتُلَ السّجانَ الجلْف . ولكنْ .. ماذا سيحدثُ له ، هو ، إن أقْدَمَ على قتلِه ؟ إنه سيُحْرَمُ بالتأكيد من رؤيةِ روزا إلى الأبد ! وهكذا يُقلعُ عن تلك الفكرةِ السوداء .

في ثالث يومٍ لغياب روزا ، كانتِ الشمسُ مشرقةً والطقسُ رائعاً .. وكان ذلك اليومُ الربيعيّ من أوائل نَيْسانِ هُوَ مَوْعِدَ غرسِ البصلة . ولكنّ روزا قد

تَغْفَلُ عن ذلك ، أو تمتنعُ عن زَرْعِ البَصَلَةِ عن قَصْدٍ !

في اليومِ الرابعِ لم يستطِعْ كورنيليوس أن يُكْمِلَ أكلَهُ ، فحَمَلَ السجانُ الأطباقَ وفيها نصفُ الطعام . أمّا في اليومِ الخامسِ فلم يَمُدَّ يَدَهُ إلى طعامِهِ . وفي المساء كان غريفوس يتحدّث عنه ويقول :

« من حُسن حظنا أننا سنتخلّص من العالِمِ عمّا قريب ! »

فرفعَتْ روزا رأسَها . وسأل يعقوبُ :

« وكيف ذلك ؟ »

قال غريفوس : « إنه لا يأكلُ ولا يشربُ ولا يتحرّكُ من السرير ! »

وقالت روزا ، في نفسها : « فهمْتُ .. إنه يخشى أن أكون قد قصّرتُ في غرس زنبقته ! »

ثم دخلتْ حجرتَها ، وأخذتْ ورقةً وريشة وراحت تكتب .

في صباح اليومِ التالي ، حانت من كورنيليوس التفاتةٌ نحو بابِ حُجرتِهِ ، فرأى تحتَهُ وَرَقاً وقلماً . قرأ على إحدى الأوراقِ هذه العبارة : « إطمئنّ ،

فزنبقتُكَ بخير » . وفهمَ من معنى وجودِ القلم أنها لن تأتيَ ذلك المساء . فتناول القلمَ وخطّ ، بِدَوْرِهِ ، هذه الكلمات : « أنا مريضٌ لأنني لا أراكِ ! » ولما بلغت الساعةُ الثامنةَ دفعَ الورقةَ من تحت الباب . ولَبِثَ ينتظر . ولم يسمعْ وَقْعَ أيّ خُطًى ، ولكن خُيِّلَ إليه أنه سَمِعَ كلمة « غداً » . وكان قد مضى عليه ثمانيةُ أيامٍ دون أن يرى وجهَ روزا .

٢٩ . اطول ايام العام

في الساعة الثامنةِ من المساء ، فتحت روزا بابَ الكُوّة ، ونظرتْ إلى كورنيليوس وسألَتْه :

« هل أنت مريض ؟ »

— « نعم ، يا آنستي ! أنا مريضٌ جسداً وروحاً ! »

— « يبدو أنك لا تأكُلُ ، يا سيدي ، ولا تنهضُ من الفراش ، لهذا كتبتُ إليك ! هل هدأتَ الآن ؟ .. إن زهرتَكَ في أتمّ عافية ! »

— « لقد أجبتُ على رسالتك .. فهل أخذتِ كلمتي ؟ وهل فهمتِها ؟ .. إنني لا أفكرُ إلا فيكِ ، أنتِ ،

يا روزا ! .. أنتِ وحدَكِ التي يؤلمني بُعْدُها ! إنكِ لي الهواءُ والضياءُ والشمسُ والحياة ! »

— « هكذا ؟ ! .. ألا تدري ؟ .. لقد تعرّضَتْ زنبقتُكَ لخطرٍ بالغ ! »

فعاوَدَهُ حُبّ الزهرة ، فسألَها بقلق :

— « خطر بالغ ؟ ! وما هو هذا الخطر ؟ »

فنظرت إليه ، وحدّثت نفسَها هامسةً :

« عليّ أن أقبَلَ هذا الرجلَ كما هو ! » ثم رفعت صوتَها قائلةً : « لِنتحدّثْ عن زهرتِكَ إذن ! .. لقد كنتَ مصيباً في ظنّكَ بأنّ يعقوبَ كان يقصِدُ الزنبقةَ ولا يقصدني أنا ! »

— « هل حَدَثَ شيٌ جديد ؟ »

— « ألم تَطْلُبْ إليّ ، آخرَ مرّةٍ ، أن أوْهِمَهُ بأنني أزرعُ البصلة ؟ »

— « إنني أعتذرُ مرةً أخرى ! .. »

— « لقد كنتُ ، أنا أيضاً ، حزينةً بسبب غلطتك .. في غَداةِ ذلك اليومِ نَزَلْتُ إلى البستان ، وأنا مُطْبِقةٌ يدي ، كأنني أحملُ البصلة ، واتّجَهْتُ إلى المكان الذي أعدَدْتُهُ من قبل . كان هناك ظِلٌ يتبعني ،

وقد أختبأ وراء الأشجار . فانحنَيت وحفَرْتُ . »

— « وهو .. هو .. ماذا فعل في ذلك الوقت ؟ »

— « غادرتُ ، أنا ، البستانَ وأغلقتُ بابه ، ورُحْتُ أراقبُ من شقّ بين خَشَبَتَيْن . فانتظرَ الرجلُ بُرْهةً ، ثم أقبلَ على الركن الذي حفرتُ أرضَهُ . فأخذ بكَفَّيْهِ المضمومتَيْن شيئاً من التراب ، وبحثَ فيه .. ثم كرّرَ العمليةَ عدّةَ مراتٍ فلم يَجِدْ شيئاً .. فأعاد الترابَ كما كان ، ومضى .

— « يا لَهُ من نَذْل ! .. يا لَهُ من لِصّ ! .. ولكنْ ماذا فَعَلْتِ بالبَصَلة ، يا روزا ؟ لقد أصبحَ الوقتُ متأخراً لغرْسِها ! »

— « البصلةُ مغروسةٌ منذ ستة أيام ! »

— « كيف ؟ .. أين ؟ .. في أيّ نوع من التراب ؟ »

— « لا أحد يستطيعُ أن يَسْرِقَها الآن ! .. لقد زرعتُها في أصِيصٍ وضَعْتُهُ في حُجْرَتي .. وهو يَشْتمِلُ على أفضلِ ترابٍ .. لقد جئتُ به من البستانِ كما علّمتَني من قبلُ ، ولم أخطِئ في شيء ! »

— « والشمس ، والضوء ؟ .. هل هناك شمسٌ وضوء ؟ »

— « الأصيصُ معرّضٌ للشمس عدّةَ ساعات كلَّ يوم .. وأنا أنقّلُهُ من مكان إلى مكان .. إنني أرعى النبتةَ كأنها طفل .. فقد رأيتُ أنّ عليّ أنْ أكونَ أمّاً لها لأستحقّ حبك . »

— « روزا ، أيتها الحبيبةُ الطّيبة ! »

وتأثرتْ روزا تأثراً عميقاً بعذوبةِ صوتِه المليء بالحنان ! ...

ثم عاد كورنيليوس يقول :

« إذن فالبصلةُ مغروسةٌ منذُ ستةِ أيام ؟ ! .. ألم يظهرْ منها أيُّ بُرْعُم ؟ »

— « كلا ! ولكني أعتقدُ أن هذا سيحدثُ غداً ! »

— « وعلى هذا فأنا أنتظرُ منكِ غداً أنباء جديدة .. عن الطفلِ وأمه ! »

— « لديّ أعمالٌ كثيرةٌ في الغد ! »

— « أما أنا فلا عمَلَ لي ! »

— « بلى ! .. إن عندك الزنبقة السوداء لتفكّرَ فيها ! »

— « إنني أفكرُ فيكِ أنتِ ، يا روزا ! .. لا تتركيني وحيداً ! .. إنني سجين ، ولم آتِ عملاً

استحقّ عليه العقاب ! .. أنظري إلى يديّ كيف ترْتعشان .. ليس هذا من أجل الزنبقة السوداء ، بل لأنك تبتسمينَ لي ! .. أتلِفي تلك الزهرة ، ولكن لا تحرِميني من رؤيةِ عينيكِ ! .. أحبّيني ، يا روزا ، فأنا أحبّكِ ، ولا أحبّ سواكِ في هذه العالم ! »

— « بالطبع تحبّني في الدرجة الثانية ، بعد الزنبقة السوداء ! »

قالت هذا ، ولكنها تركت له يدَيْها يأخذُهُما بين يدَيْه ، ويقرّبهما من فمِهِ ليَزْرَعهُما بالقُبَل . قال لها :

« قبلَ كل شيء ، يا روزا ! ... »

— « حسناً ! سآتيكَ غداً ! ولكنْ عليك أن تمتنعَ ثلاثةَ أيام عن حديث الزنبقة ، فلا تذْكُرْها ! »

— « لَنْ أطْرُقَ هذا الحديثَ بعد الآن ! »

— « هذا شيءٌ مستحيل ، وأنا لا أطلبُ المستحيل ! »

وكان خدُّها قريباً من الكُوّة ، فطبَعَ عليه كورنيليوس قُبْلَةً هائمة .

٣٠ . ولادة زهرة

عندما استفاق كورنيليوس في الصباح كان مُفْعَمَ القلب بالسعادةِ والرِّضا . وما إنْ فتَحَ عينَيْه ، حتى جرى إلى النافذة يفتحها .. كانتِ الشمسُ تَنْهَضُ مِنْ خَلْفِ الأُفُق ضاحكةً مُشْرِقة .. وكان بعضُ الحَمامِ يُحلّق في السماء ويَدُور ، وبعضُه يتجاوب على غصون الأشجار .

وشعرَ كورنيليوس بالنشاط يَسْري في عُروقِه ، وبالفرَحِ يملأ حنايا صَدْرِهِ .. شَعَرَ كأنّهُ حُرٌّ طليق ، فراحَ يغني .

ودخلَ عليه غريفوس في هذهِ اللحظة . ولما رآه على تلكَ الحالِ قال :

« يبدو أنك تستعدّ ! »

وتلقاه كورنيليوس بالابتسام قائلاً :

« مَرْحَباً بك ! كيف أنت هذا الصباحَ ؟ وكيف كَلْبُك ، والسيد يعقوب ؟ وكيف عزيزتُنا روزا ؟ ... أنا اليوم جائع ! »

— « آه ! .. جائع ؟ »

— « ولِمْ لا ؟ »

— « أنت تريدُ الهرب ! .. ولكنْ ثِقْ بأنني لن أمكّنك من ذلك ! »

— « إمنَعْني ! إمنَعْني ! يا سيد غريفوس .. أنا طَوْعُ أمرك ! »

وخرج غريفوس ، ثم عادَ ظُهراً ومعه بضعةُ جنود ، قال لهم وهو يفتَحُ الحجرة :

« فتّشوا ! »

وقال كورنيليوس :

« فتّشوا جيداً ! »

فراحوا يفتشون في أنحاء الحُجرة ، وفي ملابسِ كورنيليوس وجيوبه ، فلم يجدوا سوى الأوراقِ والقلمِ التي جاءت بها روزا . وكانَ كورنيليوس يُرَدّد :

« فتّشوا .. فتّشوا ! »

فرَدّ عليه غريفوس قائلاً :

« يضحكْ كثيراً مَنْ يضحكْ أخيراً ! »

ثم خرَجَ ووراءَهُ الجنود .

أما كورنيليوس فكانَ يضحكُ مُبْتَهِجاً بينَهُ وبين نفسِهِ في انتظارِ ساعةِ اللقاء .

وجاءت روزا في الساعةِ التاسعة . فتحدّثَ الشابان

في كلِّ شيء إلا في أمرِ الزنبقة . وكذلك حَدَثَ في اليومِ الثاني . أما في اليومِ الثالثِ فقد ابتدرته لحظةَ وصولِها قائلة :

« لقد وُلِدَتْ ! »

— « من التي وُلِدت ؟ »

— « وهل هناك غير الزنبقة ؟ »

فصاح كورنيليوس :

« الزنبقة ؟ » ثم استدرك قائلاً :

— « أتسمحين لي بالتحدّث عنها ؟ »

— « بالطبع ! »

كانت فرحتُه عارمةً فاقترب بفمه ، من وراءِ القضبان ، علّهُ يَبْلُغُ جَبْهتَها أو خدَّها فصرخت روزا ونَهَرَتْهُ . فعاد إلى حديثِ الزنبقة .. قال :

« هل نبتَتْ مستقيمةً ؟ »

— « نعم ! »

— « وهل ارتفعت ؟ »

— « خمسةَ سنتيمترات على الأقل ! »

— « انتبهي إليها ! .. لا تَكُفّي عن العناية بها ! »

— « إنني أفكر فيها باستمرار ، لأنّ التفكيرَ فيها معناهُ التفكيرُ فيكَ أنتَ ! إنني أنظرُ إليها من سريري قبل أن أغمضَ عينيّ ! أليست هي التي ستَهَبُني زوجاً ؟ ! .. زوجاً له من العمر ما بينَ ستةٍ وعشرين وثمانيةٍ وعشرينَ عاماً .. أحِبّهُ ويُحِبّني ! »

— « اسكتي ! .. يا لكِ من شريرة ! »

وتركت روزا يَدَها بين يديهِ ، ولبثا صامتين .

وراحت النبتةُ تَكْبُرُ يَوْماً بَعْدَ يوم ، ويَكْبُرُ مَعَها حُبّ الشابين . وذاتَ صباحٍ تفتّحَ الورق . ولم تَمْضِ أيامٌ حتى تكوّنَتِ الزهرة . وأخبرَتْهُ روزا بذلك ، فوقَفَ يُمسِكُ الحديدَ بكلتا يدَيْه ، والفرحةُ مرتسمةٌ على وجههِ :

« يا إلهي ! .. خبِّريني ما شكلُها ! .. هل هي كبيرة ؟ »

— « جداً ! »

— « وهل غلافُها أخضر ، تامّ الغذاء ؟ »

— « إنه يُوشِكُ أن ينشقّ ! »

في تلك الليلةِ لم يَنَمْ كورنيليوس إلا قليلاً .. إنها بُرْهةٌ حاسمة !

وبعدَ يومَيْن جاءَتْهُ تقول :

« أصبحَ في الإمكان رؤيةُ رأس الزهرةِ من الكُمّ ! »

وسألَها كورنيليوس وهو يرتجف :

« لونُها ؟ .. ما لونُها ؟ »

— « قاتم ! »

— « أهي سمراء ؟ »

— « أكثر ! »

— « أكثر من سمراء ؟ »

— « إنها كالفحم سواداً ! »

فندّتْ صَرْخةٌ عن كورنيليوس ، وهتف :

« لَكَمْ أحِبّكِ ، يا روزا ! أنتِ أغلى عندي من أيّ شيء في الوجود ! »

— « بعد الزنبقة ؟ »

— « صَهْ ! بحقّكِ لا تقولي هذا ! .. خبّريني هل تتفتّحُ غداً ؟ »

— « غداً أو بَعْدَ غد ! »

— « أوّاه ! لكنني لن أراها ! .. لن أقبّلَها كما أقبّلُ يدَيْكِ ، وشعركِ وخدّيْكِ .. في النادر النادر ! »

— « هاكَ خدّي! وسأقطعُ الزنبقةَ وأحملها إليك ! »

— « لا ، لا ! لا تفعلي ! بل ضَعِيها في الظّلّ واحرِصِي علَيْها ! .. وعليكِ أن تنبئي بذلك رئيسَ زُرّاع الزنبق في هارلم ! .. قولي له : لقد تفتّحت الزنبقةُ السوداء الكبرى ! .. ولكنْ قد لا تكونُ سوداءَ تماماً ! »

— « سنتأكد من هذا غداً أو بَعْدَ غد ! »

— « وكيفَ لي أن أنتظرَ حتّى ذلك الحين ؟! .. لن أستطيع ، لن أستطيع ! »

— « سأجد وسيلة لإخبارك فَوْرَ ظهورِها تماماً ! .. ولكنّ الساعةَ قد بلغتِ العاشرةَ ، وعليّ أن أترُكَكَ ! »

— « أجل ! أجل ! .. إذهبي ، يا عزيزتي ! »

ومضت روزا وفي نفسها ألمٌ دَفِيْنٌ : ألَمْ يَقُلْ لها بنفسه أن تَذْهَبَ عنه ؟ ولماذا ؟ لتحرُسَ زهرتَه !

٣١ . الزنبقة السوداء

كان يُخَيَّلُ إلى كورنيليوس بينَ لحظةٍ وأخرى ، خلالَ تلكَ الليلة ، أنه يسمعُ صوتَ روزا ، فيغادر سريرَهُ ، ويتوجّهُ نحوَ الباب ، فيجدُ الكُوّةَ مُغْلَقَةً ، فيعود إلى مَرْقَدِهِ .

أما روزا فكانتْ ترقدُ هادئةً على سريرها ، وروزا —

بيرل أمامَها .

وجاء الصّباح ، ولم يَتَلَقَّ كورنيليوس نبأً عن الزنبقة . وانقضى النهار ، وهو لا يعرفُ إنْ كانت قد تفتّحَتْ أم لا . ثم أقبَلَ الليل ، وأقبلت روزا كعادَتِها. وسأل كورنيليوس بلَهْفة :

« ما وراءك ؟ »

— « كلُّ شيء على ما يُرام !.. ستَتَفتّح الزهرةُ تماماً هذه الليلة ! »

— « سوداء ؟ »

— « أشدّ سواداً من الفحم ! »

— « كلُّها ؟ »

— « كلُّها ! »

— « روزا ! لقد ظللتُ أفكّر فيكِ طَوالَ الليلةِ الماضية .. فيكِ ، أنتِ ، أولاً ، ثم في الزنبقة ! »

وتحدّثا حتى العاشرةِ ، ثمّ تركَتْهُ ، وأوتْ إلى حُجرتها . أما هو فظلّ مُسَهَّداً ، لا يستطيعُ النومَ . وفي الهزيعِ الأخيرِ من الليل ، سمعَ وقعَ خطىً عند الباب . فهبّ من سريره ، وأقبلَ على الكُوّة ، فإذا بهِ وجهاً لوجهٍ أمام روزا .. قالت هذه :

« لقد تفتّحت ! .. إنها سوداء .. هاكَها ! »

— « كيف ؟ .. أين هي ؟ »

— « ها هي معي ! »

ورفعتِ الأَصيصَ إلى مُستوى الكُوّة ، وقالت : « قبِّلْها ، فلقد قبَّلْتُها ، أنا ، منذُ لحظة ! »

كانت الزهرةُ بالغةَ الرّوعة ، بسَوادِها الفاحم ، وحَجْمها الكبير . وكانت تختالُ فوق عُنُقٍ طويلٍ ، يرتفع قرابةَ خمسة وأربعينَ سنتيمتراً . فقرّبَ كورنيليوس فمَهُ بهُيام وقبّلَ الزنبقةَ العظمى ، ثم قال بصوتٍ مُضْطَرِبٍ :

« علينا أن نكتُبَ الرسالةَ في الحال ! »

— « لقد كتبتُها ، يا حبيبي ! »

— « حقاً ؟ ! »

— « لقد كنتُ أخطّها وأنا أنظُرُ إلى الزنبقة وهي تتَفَتّح .. خُذْ ، إقرَأها ! »

فتناوَلَها كورنيليوس وراحَ يقرأُ بصوتٍ مسموع :

« سيدي الرئيس !

إن الزنبقة ستتفتح خلالَ عشر دقائق . لهذا سارعتُ إلى كتابةِ هذه الرسالة ، لأبعثَ بها إليك فَوْراً . أنا بنت غريفوس، مديرِ سجن لوونشتين .. إنني سجينةٌ مثل باقي السجناءِ عند أبي ، لهذا لا أستطيع أن آتيَ بنفسي لأحملَها إليك ، فرجائي أن تتكرّم أنت بالمجيء لأخْذِها . أما اسمُها فروزا — بيرل : ها هي قد تفتحت .. إنها سوداء تماماً .. تعالَ ، يا سيدي ، تعال ! »

روزا غريفوس



قال كورنيليوس :

« هذا ما ينبغي أن يُكتب ، يا عزيزتي روزا ! إن كتابتكِ رائعة ! والآن علينا ألا نُضيعَ الوقت .. أرسلِيْها مع أحدِ الأصدقاء .. ليَكُنِ اللهُ دائماً في عوننا ! »

٣٢ . العدوّ لا يغفل

لا شكّ أنكم فهمْتُم ، أيّها الأصدقاء ، أن السيد يعقوب هو العدوّ القديمُ اسحق بوكستل عينُه . إنه يعيش في لوونشتين منذُ أشهر . وقد حمل إلى غريفوس أفخرَ الخمور الهولندية ، فأصبحَ بذلك صديقَهُ الحميم . وقد فتحَ أمامَهُ بابَ الأمل بأنه سيقترن بابنتِه . وفي الوقت نفسِه كان يُوْغِرُ صدره على كورنيليوس ، ويُحذّرُهُ منه .. وكان يكرّر دائماً قوله :

« إنه رجلٌ شديدُ الخطر .. وليس من شك في أنه ما زالَ يتآمرُ على الأمير أوف أورنج وعلى الحكومة ! .. ألم تجدْ قلماً معه ؟ ! »

وكان يَتْبَعُ روزا أينما توجّهَتْ ، ولا يتركُها تغيبُ عن بصره . وذاتَ مساءٍ خلعَ حذاءَه، وسارَ وراءها ، وهي في طريقها إلى كورنيليوس ، ثم اختبأ عند أسفل السلّم . ويومَها أحسّت روزا بأن هناكَ من يتلصّصُ عليها ، ولم تشكّ في

بوكستل يستولي على الزنبقة السوداء

أنههو بالذات .. وكان شكّها في محلّه . ومنذ تلكَ الليلةِ عرف اسحق أن كورنيليوس لم يَفْقِدْ سوى بَصَلَة واحدة ، وأن لَدَيْهِ بصلةً واحدةً ، على الأقلّ ، غيرَ التي أتلفت ، وأن روزا ستَغْرِسُها حتماً . وقد رآها تأخُذُ أصيصاً كبيراً إلى حُجْرتها ، كما رآها تحملُ تراباً من البستان ومن ضِفّة النهر .

عند ذلك استأجر حجرةً صغيرةً مواجهةً لحجرة الفتاة ، وعاد إلى استخدام منظاره المقرِّب . وهكذا رأى أصيْصَ الزهرةِ موضوعاً على النافذة وتتبّعَ كلّ حركات روزا ، والعنايةَ التي تبذلها للنبتة . رآها تُدخِلُ الأصيْصَ في الليالي القَرّة ، وفي الساعاتِ التي تشتدّ فيها حرارةُ الشمسِ أثناء النهارِ ، أي من الحاديةَ عشْرةَ حتّى الثانية . وقال في نفسه أنْ ليس هناك سوى رجلٍ واحدٍ يُمكنُ أن يوجّهَها على هذا النحو : فان بيرل !

وارتقبَ اسحق بوكستل أن تَنْبُتَ في الأصيصِ زنبقةٌ وتتفتّح .. كان متأكّداً من ذلك ، نظراً إلى ما شاهدَهُ من العناية المبذولةِ للنبتة . وهذه الزهرةُ ستكون هي الزنبقة السوداء المُنْتَظَرَة .

وعلى هذا الأساسِ وضَعَ خطّةً لسَرِقتِها عندما تخرُجُ من أكمامها ليقدّمَها فوراً إلى المسؤولين في هارلم . ولن يصدّقَ أحدٌ كلامَ ابنة سجّان ، في حين أن الجميعَ سيصدّقونه ،

هو ، إسحق بوكستل ، زارع الزنبق المعروف منذ زمن طويل .

ولكنّ سَرِقةَ الأصيْصِ تستدعي صُنْعَ مفتاحٍ لحجرة روزا ، وهو شيء فيه بعضُ الصعوبة . ولكنّه لن يتراجعَ دونَهُ .. لقد كان يعلمُ أن روزا تترك حُجرتها في الثامنة ، لتناوُلِ العَشاء ، ثم للقاء كورنيليوس ، لتعودَ إليها في العاشرة .

فجمعَ رزمة من المفاتيح ، وتوجّهَ إلى حُجرة الفتاة يعالجُ بابَها ، أثناء غيابِ صاحبتها ، ونوم غريفوس كالحجر ، بعد سكْرةٍ ثقيلة . جرّبَ جميعَ المفاتيح ، إلى أن وجدَ بينها المفتاحَ المناسب ، الذي مكّنه من فتح الباب بسهولة . ولما نجح في ذلك وضعَ المفتاحَ في جيبهِ ولبثَ ينتظر .

ومن نافذة حُجرتِهِ شهدَ ميلاد الزهرة ، فقال في نفسه إن الوقت قد أزفَ للاستيلاء عليها . ولكن روزا لم تكن تتركُ حُجْرَتَها في تلك الأثناء ، أيْ خلالَ الفترة التي انقطعَتْ فيها عن رؤية كورنيليوس . وجُنّ جنون بوكستل ، وهو جالسٌ طولَ الوقت عندَ النافذة ، ومنظارُه على عينِهِ : الزهرةُ تُوْشِكُ أن تتفتّح وهو غيرُ قادرٍ على أخذِها !

وفي ذاتِ يومٍ قرّر الاستيلاء عليها في المساء مَهْما كلّفَ الأمر . وعلى هذا حملَ ،آخرَ النهار ، زجاجتَيْن من الخمر إلى غريفوس ، بدلَ الواحدة ، فراح هذا يَعُبّ الخمرَ عَبّاً . وما هي إلا ساعةٌ أو بعضُ ساعةٍ ، حتّى أصبح إسحاق

بوكستل سيّد السجن ، يستطيع أن يَسْرَحَ ويَمْرَحَ فيه طولَ الليل .

وفي الساعة الثانيةِ بعد مُنْتَصَفِ الليلِ رأى روزا تخرُجُ من حجرتِها ، وبين يدَيْها شيء ، قَدَّرَ أن يكون هو الأَصِيْصَ . ولكنْ إلى أينَ تَذْهَبُ به ؟ هل يمكنُ أن تحملَهُ بنفسِها إلى هارلم تحت جُنحِ الظلام ؟ مُستحيل ! إذن لا بُدَّ أنها تريدُ أن تُرِيَ كورنيليوس زَهْرَتَهُ المتفتحة. فخلع حذاءَهُ وتَبِعَ الفتاة.

وهكذا تَسَنّى له أن يرى الزنبقة السوداء وهي مُكْتَمِلَةَ التكوين . كذلك سمعَ الشابّيْن يتحدّثان عن الرسالة ، كما سمع مضمونَ هذه الرسالة . ومن ثمّ هبط بسُرعَةٍ واختبأ .

فشاهدَ روزا تَدْخُلُ حُجرتَها لإعادةِ الأصِيْصِ إلى مكانه ، ثم تخرُجُ وتُقْفِلُ البابَ بعناية .

٣٣ . الزنبقة في يد جديدة

ظلَّ كورنيليوس في مكانه ، بعد أن تركتْهُ روزا ، كأنَّ أيَّ حركة يأتيها تُفْقِدُهُ تلك السعادةَ الواسعةَ التي كان غارقاً فيها . ومضى على ذلك نحوُ نصفِ ساعة . وبدأتْ خيوطُ الفجرِ تظهَرُ عندَ الأُفُقِ وتمتدّ إلى حُجْرَتِه . وفجأةً سَمِعَ صُراخاً ، وخُطىً سريعةً . وما هي إلا لحظةٌ

حتى ظهرَتْ روزا لعَيْنَيْه ، شاحبةَ الوجه . كأنَّ كلَّ دمائها قد انسحَبَتْ من وَجْهِها ، فلم يَبْقَ منها فيه أيُّ قطرة . وصاحت وهي تلهَثُ ويداها تَضْطَرِبان :

« كورنيليوس ! كورنيليوس ! »

— « يا إلهي ! ما بك ؟ .. ما الذي حدَثَ ؟ »

— « كورنيليوس ! .. الزنبقة ! .. أخذوها .. سرَقوها ! »

— « الزنبقة سُرِقت ؟ ! »

— « نعم ، سُرِقت ! »

قالت هذا ووَقعَتْ على رُكْبَتَيْها ، لأنها لم تَعُودا قادرَتَيْن على حَمْلِها .

وقال كورنيليوس ، الذي كاد يَفْقِدُ عقله :

« ولكنْ كيف حدَثَ هذا ؟ ! إشْرَحي كلَّ شيء ! »

— « ليسَتْ تلك غلطتي ، يا صديقي ! .. لقد ذهبْتُ لأحملَ الرسالةَ إلى رفيقي كارل .. إن منزلَهُ يقَعُ على بُعْدِ خمسينَ متراً من هنا .. وقد أعطيتُهُ الرسالةَ لإيصالها إلى هارلم ، فمضى على الفور . »

— « لا بُدَّ أنكِ تركتِ المفتاحَ في الباب ، أيَّتُها البنت الطائشة ! »

— « كلا ! كلا ! إنَّ المفتاح لم يَخْرُجْ من جيبي ! .. وقد ظلّتْ قابضةً عليه إلى حين عودتي ! »

— « إذن فكيف حدَثَت السَّرِقة ؟ »

— « ومن أين لي أن أعرِف ؟ .. لقد أوصلتُ الحطابَ وَعُدْتُ في الحال . ووجدتُ البابَ مُقْفَلاً كما تركْتُهُ . ولما فَتَحْتُ كان كلّ شيء في مكانِهِ داخلَ الغرفة ، عدا الزنبقة التي اختَفَتْ ! .. هناك شخصٌ صَنَعَ مفتاحاً للباب بقَصْدِ السّرِقة .. أنا واثقةٌ من ذلك ! » .

قالَتْ هذا وانخرطَتْ في البكاء ، بينما كان كورنيليوس يردّدُ كالمخبول :

— « سُرِقَتْ ! سُرِقَتْ ! ضاع كلُّ شيء ! »

— « سيّد كورنيليوس ! إنني أكادُ أموتُ من الحسرة !

وراح كورنيليوس يَشُدّ بكل قُوّتِهِ على حديدِ الكُوّة ، ثم صاح :

« روزا ! لقد سَرَقونا .. هذا صحيح .. ولكنْ هل نسكت ؟ هل نتركُ حقّنا يضيع ؟ ! إننا نعرِفُ الفاعل ! أجل، نعرِفُهُ .» إنه يعقوب ! .. ليس في ذلك أدنى شكّ ! إنهُ في طريقِهِ إلى « هارلم » ليحملَ إليها ثمرةَ أتعابنا، وَليَبْدَ حُبّنا ! روزا، يجبُ أن نَتْبَعَهُ لنستعيدَ حقّنا المغتصَب، وندافعَ عن أنفسنا ! »

— « وماذا في إمكاني أن أفعلَ ، أنا ، يا صديقي ؟ هل أستطيعُ أنا ، المرأة الضعيفة ، الصغيرة ، التي لا تمتلكُ حرّيّتَها ، أن أنجحَ في القيام بمثل هذه المُهِمّة الصعبة ؟ ! أنت نفسك ... »

— « روزا ! روزا ! إفتحي لي هذا الباب ، وأنا أعرِفُ

كيف أصِلُ إلى السارق ، وأجْبِرُهُ على الاعتراف ! »

قالت روزا وخدّاها مبلّلان بالدموع :

« المفاتيحُ ليست معي ! »

— « إنها مع والدِكِ .. والدُكِ متواطىء مع يعقوب ، فهو الذي سحَقَ بصلتي الأولى ! »

— « إخفِض صوتك .. إخفِضْ صوتك ! »

— « روزا ! إفتحي هذا الباب ، وإلا حَطّمتُهُ ، واقتلعتُ هذه القضبان ! »

— « يا صديقي ! هدّىء من ثائرتك ! »

— « سأهدم هذا البناء حجراً حجراً ! »

وفي ثورته تلك كان المسكينُ يضرِبُ على الباب بعنف ، ويصيح بأعلى صوته :

« سأقتلُ غريفوس ! .. سأُجري دَمَهُ ، كما أجرى ، هو ، دمَ زنبقتي السوداء ! »

لقد جُنّ المسكينُ تماماً . وقد أُسقِط في يد روزا ، التي صُدِمَتْ مرة ثانية بهذا الهياج العجيب ، فلا تدري ماذا تفعل ، ولا تدري كيف تُسْكِتُه . قالت محاولةً تَهْدِئَتَهُ :

« سأفعلُ ما تشاء ! .. أجل .. سآخذُ المفاتيحَ من أبي ، لأفتحَ لك الباب ! .. ستخرج ! .. ولكن بربك لا تَزْعَقْ هكذا .. كُفّ عن الصياح ! .. أرجوك أن تكفّ عن الصياح !»

وسمع غريفوس تلك الجلبَة ، فأقبلَ مُسْرِعاً . وقد حال

الصراخُ وصوتُ الضرب على الباب بين الشابيْن وبين سماع خطى غريفوس على السلّم ، فلم يَشْعُرا إلا وهو أمامهما وصاحت روزا :

« هذا والدي ! »

فازداد كورنيليوس هياجاً وصراخاً :

« أنت ؟ ! أنت ؟ ! »

فأخذ غريفوس الكهلُ ابنتَهُ بذراعِها ، وهو يصارعُ غضباً مُدَمِّراً يريد أن ينفجر ، وقال لها :

« إذن فأنتِ تريدينَ أن تأخذي مفاتيحي لتُطْلقي سَراحَ هذا الرّجُل الذي يستحقّ الشنق ؟ ! .. هيه ، يا سيدي زارع الزنبق ! .. أيها العالم الرقيق المهذّب ! إذن فأنت تبغي قتلي ؟!.. هذا ما كان ناقصاً ! .. وبالاشتراك معَ من ؟ معَ ابنتي ! .. غداً ستكونُ الحكومةُ على علم بكل شيء ! .. إننا نعرف القوانين ! .. في هذه المرة لن تَنْجُوَ من الشنق .. أنا واثقٌ من ذلك كلّ الثقة ! .. أما أنتِ ، يا ابنتي ، فستنالينَ العِقابَ المناسب ! .. هيّا انزلي ! »

وهمستْ روزا لكورنيليوس ، وقد واتَتْها فكرةٌ جديدة :

« لم يَضِعْ كلّ شيء ، يا عزيزي كورنيليوس ! سأعرفُ كيف أتصرّف .. إعتمِدْ عليّ ! »

وكان والدُها يهبطُ على الدرج ، وهو لا ينفكّ يهدّدُ ويتوعّد . أما كورنيليوس المسكين ، فقد انهارَ على الأرض ،

وهو يُردّد :

« سرقوها مني .. سَرَقوها ! »

٣٤ . مسافران

خرج بوكستل من السجن ، وهو يحملُ الزنبقةَ السوداء ملفوفةً بمعطفِه . وركبَ عربةً إلى غوركوم ، طالباً إلى حُوذِيّها أن يسيرَ على مهل . وفي « دلْف » وَضَعَ الزنبقة في علبة . وطوالَ الليل كان يحتضن العُلبةَ بين ذراعَيْه ، كأنها طفلٌ صغير . ووصلَ في صباحِ اليومِ التالي إلى هارلمْ ، حيْثُ وضعَ الزنبقة في أصيصٍ جديد ، وكسرَ القديمَ ورماه . بعد ذلك نزلَ في فندقٍ محترم ، ومعَه الزّهرة ، وكتب إلى رئيسِ زُرّاعِ الزنبق في المدينة يقول له :

« لقد استنبتُّ زنبقة سوداء ، وسأحملُها إليك بعد ساعةٍ من الزمن . »

أما روزا فإزاء ما حدثَ قرّرتْ أن تنصرفَ لمعالجة الموقف . لقد أصبحَ والدُها الآنَ يَعْرِفُ أنها تحبّ كورنيليوس ، ولهذا لن تتمكّنَ بعد اليوم أن تصعدَ السلّمَ لتتحدّث ساعةً إلى الشخصِ الذي اختارَه قَلْبُها. يُضافُ إلى هذا أن كورنيليوس قد صُدِمَ صدمةً بالغةً وتولاّهُ اليأس ، فلم يَبْقَ سوى وسيلةٍ واحدة لانقاذهِ من الانهيار : وهي إعادةُ الزنبقة إليه



المسافران ينطلقان على عجل

إذن فعليها أن تناضل بمفردها ، وتكسب المعركة .

هذا هو القرار الحاسم الذي وصلت إليه ، بينما كان أبوها يهدد كورنيليوس ، ويتوعد برفع أمره إلى الدولة . فما إن عادت إلى حجرتها حتى جمعت بعض الملابس الداخلية في صرة ، وأخذت ما سبق لها أن ادخرته من القطع الذهبية ، وخبأت بصلة الزنبقة الثالثة في صدرها ، ثم أقفلت باب غرفتها ، حتى لا ينتبه أحد إلى تغيبها إلا بعد مدة كافية ، وغادرت السجن ، ومضت تفتش عن عربة . والمعروف أن هولندا هي أكثر البلاد أنهاراً ، ولهذا فالمرء يقضي وقتاً طويلاً في الانتقال من نقطة إلى أخرى . وكان بوكستل قد استأجر العربة الوحيدة في تلك الضاحية ، فلم تجد سوى حصان ، ركبته واتخذت وجهتها إلى هارلم . وفي أثناء الطريق صادفت صديقها الفتى ، كارل . فأخذت منه الرسالة وقالت له :

« إنني في حاجة إليك، يا كارل، فهل لك أن تأتي معي ! »

— « بكل سرور ! »

— « ولكن ليس معك حصان ! »

— « لا تهتمي لهذا الأمر ! .. فسأمسك بركابك وأجري حسب سرعة حصانك ! »

— « إفعل ما بدا لك .. ولكن علينا ألا نضيع الوقت ! »

وسار المسافران مسرعين ، فقطعا اثنين وثلاثين

كيلومتراً في خمسِ ساعات .

في لوونشتين ظلَّ غريفوس مُعتقداً أنَّ ابنتَهُ ملازمةٌ غرفَتَها . فلما كانتِ الساعةُ الواحدة ، أرسلَ أحدَ الجنود ليدعُوَها . فذهب الجنديّ وقرعَ عليها البابَ، وناداها باسمِها ، فلم يُجِبْهُ أحد . فراح يفتّشُ عنها في المطبخِ والبُستان ، وغيرهما ، فلم يَقَعْ لها على أثر . فعادَ إلى غريفوس يُنَبِّئُه بذلك . فقرّر هذا أن يتولى التفتيشَ بنفسه . وذهب أولاً إلى حُجرتها ، فقَرَعَ الباب ، ونادى ابنتهُ عدّةَ مرات ، ثم عَمَدَ إلى خلْعِ الباب ، فوجدَ الغرفةَ فارغةً . عندها صعَدَ إلى حجرةِ كورنيليوس، وجعَلَ يَصْرُخ ،ولكنّ كورنيليوس كان في حالةِ ذهولٍ فلم يسمَعْ صُراخه .

وعاد الأب يفتش عن ابنتهِ في الخارج ، فقيلَ له إنها استأجرتْ حصاناً ، وركبَتْهُ واتجهَتْ إلى ناحيةٍ مجهولة . فوقَعَ في الحيْرةِ والارتباك . عندها قرّرَ أن يستشيرَ يعقوبَ في الأمر . فذهَبَ إليهِ فلم يَجِدْهُ ، ثم فتّشَ عَنْهُ ، وعادَ بخفّيْ حُنين. هنالكَ تبادَرَ إلى ذهنِهِ أنّهُ من المحتمَلِ أن يكون يعقوب قد خطَفَها .

في هذا الوقتِ كانت روزا قد وَصَلَتْ إلى « دَلْف» ، وفي اليومِ التالي دَخَلَتْ مدينةَ هارلم بَعدَ بوكستل بأربعِ ساعات .

٣٥ . الرئيس

ما إن وصلت روزا إلى هارلم حتى راحت تسألُ عن منزل السيد فان سيستنس ، رئيسِ جمعيةِ زارعي الزهورِ في هولندا . ولما وصلت إلى هناك طلبَتْ مقابلةَ الرئيس ، فلم يُسمَحْ لها بالدخولِ ، لأنّ الرئيس منهمكٌ في الكتابة ، واسمُها نَكِرَةٌ بالنسبة إليه . ولكنها اقتحمَتْ عليه مكتبهُ ، دون إذنٍ وقالت بعد أن أصبحت داخل المكتب :

« لقد جئتُ من بعيدٍ لأتحدّثَ إلى السيّدِ الرئيسِ في أمر الزنبقة السوداء . »

فلما سمع الرئيسُ هذه الكلمات ، رفعَ رأسَهُ عن الأوراق ، ثم نهضَ واستقبلَ الفتاة .

وكان السيد سيستنس قصيرَ القامةِ نحيلَ الجسدِ ، يبدو جسمُهُ كساقِ زهرةٍ تخرجُ منها ورقتانِ — هما يداهُ — تَحتَضِنانِ زهرةً ، هو رأسُهُ . وكانت تبدو عليه الطيّبةُ والرّقّة . قال بعدَ أن رحّبَ بها :

« هل قلتِ إنكِ أتيتِ لتكلميني في شأن الزنبقة السوداء ؟ »

— « نعم ، يا سيدي ! »

— « أهي في حالة جيدة ؟ »

— « لست أدري ، يا سيدي ، لسوء الحظ ! »

— « هل أصيبت بمكروه ؟ »

— « لقد نَزَلَتْ بها مصيبةٌ فادحة : سُرِقَتْ ! »

— « وهل تعرفين مَنْ سرَقها ؟ »

— « أعتقدُ بأني أعرِفه.. لستُ متأكّدةً من ذلك تمامَ التأكّد ، ولكني أرجّحُ أنه هو ، وليس في إمكاني أن أبوحَ باسمِهِ . »

— « ليس السارقُ بعيداً عن هذا المكانِ بالطبع .. فلقد رأيتُ الزنبقة السوداءَ منذُ ساعتين ! »

فصاحت روزا وهي تقتربُ من الرئيس :

« أرأيتَ الزنبقةَ السوداء ؟ »

— « كما أراكِ الآن ، أيتها الآنسة ! »

— « ولكنْ أين ؟ »

— « عند السيد إسحق بوكستل ، سيّدِكِ على أكبرِ الظن ! »

— « سيدي أنا ؟ ! إنني لا أعرِفُ شخصاً بهذا الاسم ، وزنبقتي ، التي هي زرعُ يدي ، قد سُرِقَت مني ! »

— « في هذه الحال تكون زنبقتُكِ هي زنبقةَ السيّد بوكستل وقد سُرِقتْ منه ! »

— « إنني أعودُ وأكرّرُ ، يا سيدي ، أنني لا أعرِف السيد بوكستل ! .. هل السيّدُ بوكستل لَدَيْهِ زنبقةٌ سوداء ؟ »

— « نعم ! »

— « هل هذه الزنبقة شديدةُ السوادِ كالفحم ؟ »

— « نعم ! »

— « وهل يدّعي هذا السيد بأنها مِلْكُهُ ؟ »

— « نعم ! »

— « أهو نحيفُ الجسم ؟ »

— « نعم ! »

— « هل رأسُ هذا السيد بدونِ شَعر ؟ »

— « هناك قليلٌ من الشّعرِ على جانبَيْ رأسِهِ ! »

— « أليسَ هذا الرجلُ أحولَ ، لا ينظرُ في خطٍ مستقيم ؟ »

— « بلى ! »

— « سيدي ! إن هذا الرجل يدعى السيد يعقوب ، والزنبقة هي مِلْكي أنا ! .. لقد سُرِقَتْ مني . وقد جئتُ إليكَ لتنصفَني وتعمَلَ على إعادتِها إليّ ! »

فصاح السيد سيستنس محتجاً وهو ينظر إلى روزا :

« ماذا ؟ ! أتجرؤين على الطّلبِ إليّ أن أعطيَكِ زنبقة السيد بوكستل ؟ ! أأنتِ لا تخشَيْنَ أحداً ؟ ! »

— « سيدي ! إنها زنبقتي ! أنا التي زرَعْتَها وتعهدْتُها ! إنها لي .. مِلْكي أنا ! »

— « إذهبي إلى السيد بوكستل وتفاهَمي معه ، فهو ينزِلُ في فندق « الزهرة البيضاء » . إتفقي مَعَهُ وأنا أكتبُ فقط : لقد وُلِدت الزنبقةُ السوداء ، وقد رأيتُها بنفسي ، فينبغي

دفعُ المئتي ألفِ ذهبية ! » ثم أضاف قائلاً :

« دَعيني ، أيتُها الآنسةُ أسْدي إليكِ نصيحةً : أنتِ شابةٌ جميلةٌ وفي هارلم محكمةٌ وسجن . والكاذبونَ يدخلونَ هذا السجنَ بمنتهى السّهولة ! »

بعدَ هذا عادَ الرئيسُ إلى مكانِهِ ، أمامَ المكتب ، وراحَ يُكملُ عمَلَهُ .

٣٦. ظهور شخص جديد

توجّهتْ روزا إلى فندقِ «الزهرة البيضاء» وفي صُحبتها كارل . وكان كارل هذا من القوّة بحيثُ يستطيعُ أن يَسْحقَ عشرةَ رجال مثل بوكستل . وكان يكرّرُ ذلك على مسامعِها أثناءَ الطريق ، ليشجّعَها . أما هي فقد كانت لاهيةً عنه بأفكارها وتحليلِها للوضع . وفجأةً توقفَتْ عن المسير ، وقالت :

« لم أكن ذكيةً في تصرُّفي ، فقد نبّهتُ الآنَ هذَيْنِ الرّجلينِ ، اللّذَيْنِ يستطيعان أن يتفاهما ويتّفقا معاً على حسابي ، أنا ، الفتاة القروية السّاذَجة . قد يكونُ السارق غيرَ يعقوب ! .. أليس من المحتملِ أن يكونَ قد سرَقَها رجلٌ آخر ؟ ! .. آه ، يا إلهي ! لقد قُضيَ عليَّ ! .. ولكنْ هل أنا المُهمّةُ في الموضوع ؟ ! كلا ! كلا ! لست أنا

شيئاً يُذْكر.. فلأضِعْ ، فليس هذا بالأمر الهام ! .. المهمُ ألا يَضيعَ كورنيليوس ولا تضيعَ الزنبقة ! .. كارل ! يجبُ أن أعودَ إلى مكتبِ الرئيس ! »

وعادَتْ ومرافقَها على أعقابها . ولم تلاحظْ أن هناك حركةً غيرَ عاديةٍ حَوْلَها ، لأنها كانت في شُغْلٍ شاغلٍ عن كل شيء . فقد كان الناسُ يَجْرونَ من هنا ومن هنا ، والأبوابُ تُفْتَحُ ويَخْرُجُ السكانُ إلى الشارع . وكان الجميعُ يتحدّثونَ عن الزنبقة السوداء وجائزةِ المئتي ألف ذهبية .

ووصلت الفتاةُ إلى مقرّ رئيس الزارعين ، فعرفَها البواب ، وتركها تَدْخُلُ ، هذه المرة ، دون أن يُلقي عليها سؤالاً . ولكنّ رئيس جمعية الزُرّاع انتهرَها ، وهَمّ بدعوة الحُجّابِ لطَرْدِها وإلقائها في الخارج . فقالت له :

« لا تَقْسُ عليّ ، يا سيدي ! إستمِعْ إليّ فسأقولُ لكَ الحقيقةَ بتفاصيلها.. أُدْعُ السيد يعقوب هذا ، واجمَعْني به .. لقد أصبحتُ الآن على ثقةٍ تامة ! »

— « دعيني أعمل ! »

— « سيدي ! أنت رئيسُ جمعيةِ زارعي الزهور في هولندا .. وبهذه الصفةِ ، لا يَسَعُكَ أن تَهَبَ المكافأةَ إلى لصّ ! »

وفي هذه اللحظةِ ثارتْ جلَبَةٌ في الشارع ، كانت تزدادُ ارتفاعاً وتقترِبُ .. ثم سُمِعت هتافات . فتساءلَ الرئيس :

« ما هذا ؟ .. ما الذي حدث ؟ .. هل هذا ممكن ؟ هل ما سمعتُهُ حقيقة ؟ »

ونهضَ مسرعاً إلى الباب ، تاركاً روزا وَحدَها في المكتب .

كانتِ السلَّمُ مزدحمةً بضُبّاط الجيش . وكان يتقدّمُهم شابٌ يرتقي الدَّرَج بتَمَهّل . فصاحَ السيد سيستنس ، عندما رآه :

« مولاي ! مولاي ! أنت هنا ، عندي ؟ ! يا لَلسّعادة ! .. يا ... »

كان ذلك الشابّ الخطيرُ هو الأمير وليم أوف أورنج . قال لرئيس الزّراع الذي يستقبله بتلك الحفاوة وذلك الاضطراب :

« سيد سيستنس ! أنا رجلٌ هولنديّ بكل معنى الكلمة : أحب الماء والجعَة والجُبْنَ والزهور . وأنا ، كغيري من الهولنديين ، أفضّلُ الزنبق على كافّة الأزاهير الأخرى . وقد قيل لي أن الزنبقةَ السوداء قد أُنْتِجَتْ .. لهذا جئت لأشاهدَها .. هل هي عندك هنا ؟ »

ودُهِش رئيسُ الزّرّاع لدي سَماعه هذا الحديثَ الطويلَ ، من أميرٍ عُرِفَ عنه أنه صَمُوتٌ لا يتكلمُ إلا بقدر ، وإذا تكلّم فكلامُهُ يوزَن بالمثقال . فأجابه قائلاً :

« إنها ليست موجودةً هنا ، لسوء الحظ ، يا مولاي ! »

— « وأين هي ؟ »

— « عند صاحبها ! »

— « ومن هو ؟ »

— « إنه زارع من دُورْدْرَشْت . »

— « من دُورْدْرَشْت ؟ »

— « نعم ! »

— « وما اسمُهُ ؟ »

— « بوكستل ! »

— « وأين يقيم ؟ »

— « في فندق الزهرة البيضاء ! .. سأدعوه في الحال ليأتيَ إلى هنا ومعه الزهرة ! .. هل لمولاي أن يتفضّلَ بالدخولِ إلى مكتبي ! »

— « حسناً ! أدعُهُ إلى هنا ! »

— « أمرك ، يا مولاي ! ولكن ... »

— « ماذا ؟ »

— « لا شيء ! لا شيء ! مسألة لا شأنَ لها ! »

— « لكل شيء شأنُهُ وخطَرُه ! »

— « إن المكافأةَ تبلغ مئتي ألف قطعةٍ ذهباً .. لكنْ هناك شخص آخر يدّعي أنه هو الذي استنبتَ الزنبقة السوداء ! »

— « الأمر يتعلق بجريمة ، يا سيد سيستنس ! »

— « أجل يا مولاي ! والمجرم امرأة ، وهي موجودة في مكتبي ! »

— « وما هو موقفك أنت ؟ »

— « المكافأة ضخمة ، يا مولاي !؟ »

— « لِنَستمِعْ لهذه المرأة ، يا سيد سيستنس ! وأنا سأحكم بنفسي ! .. تقدّمْ أمامي ، ولا تَدْعُني بالأمير ! »

٣٧ . زارع آخر

كانت روزا لا تزالُ في مكانها بجانب النافذة ، تنظر إلى الخارجِ من وراء الزّجاج . والتفتت إلى ناحية البابِ عندما دخل الأميرُ ورئيسُ الزّرّاعِ . واتّجهَ الأميرُ إلى ركن من أركان المكتب ، وجلسَ بهدوء ، فلم تَأْبَهْ له الفتاة . التي كانت ترى أن رئيسَ زارعي الأزهار هو أهمّ رَجُلٍ في البلاد ، في تلك اللحظة . وجلس هذا أمامَ مكتبِه ، وخاطبَ روزا بكل جِدّ ، فقال :

« أتَعِدِينني ، يا ابْنتي ، بأن تقولي الحقيقةَ دون زيادةٍ أو نقصان ؟ »

— « إنني أعِدُكَ بذلك ! .. لقد قلتُ كلّ شي ، فأرجو منك أن تدعوَ السيد بوكستل هذا إلى هنا ، ولْيَحملْ معه زنبقتي ! .. إنني لن أتنازلَ عنها ، وسأسعى بكلّ طاقتي ، لاستعادتِها ، ولو اضْطُرِرْتُ ، من أجل ذلك ، إلى مقابلة الأمير وليم أوف أورنج . »

فتوجّهَتْ عينا الرئيس ، دون إرادةٍ منه ، إلى الزاويةِ

المظلمة التي كان يجلسُ فيها الأمير .

وخُيِّل إلى الأمير أنّ ذلكَ الصَّوْتَ الموسيقيّ الناعمَ ، ليس غريباً على أذنه . فراح يحاولُ أن يتذكّرَ أين لقيَ هذهِ الفتاة . واستأنفَ فان سيْستنس كلامَهُ قائلاً :

« وهل لَدَيْكِ برهانٌ على ما تقولين ؟ »

— « بالطبع ، فقد ربّيْتُ هذه الزهرةَ في حجرتي ! »

— « وأين توجد حُجْرَتك ؟ »

— « في لوونشتين ! أنا ابنةُ مديرِ السجن هناك ! »

فأتى الأميرُ بحركةٍ خفيفة : لقد ذَكَرَ الآنَ في أيّ ظروفٍ رأى هذه الفتاة .. قال لها الرئيس :

« إذن فأنت عالمةٌ خبيرةٌ في تربيةِ الأَزْهار !؟ »

— « سأقولُ لكُمُ الحقيقة أيها السادة: أنا لستُ بعالمة ، ولا مختصة في زراعة الزهور .. بل أنا بنتٌ بسيطةٌ من بنات الشعب ، وما أنا التي أوجدتُ الزنبقة السوداء ! »

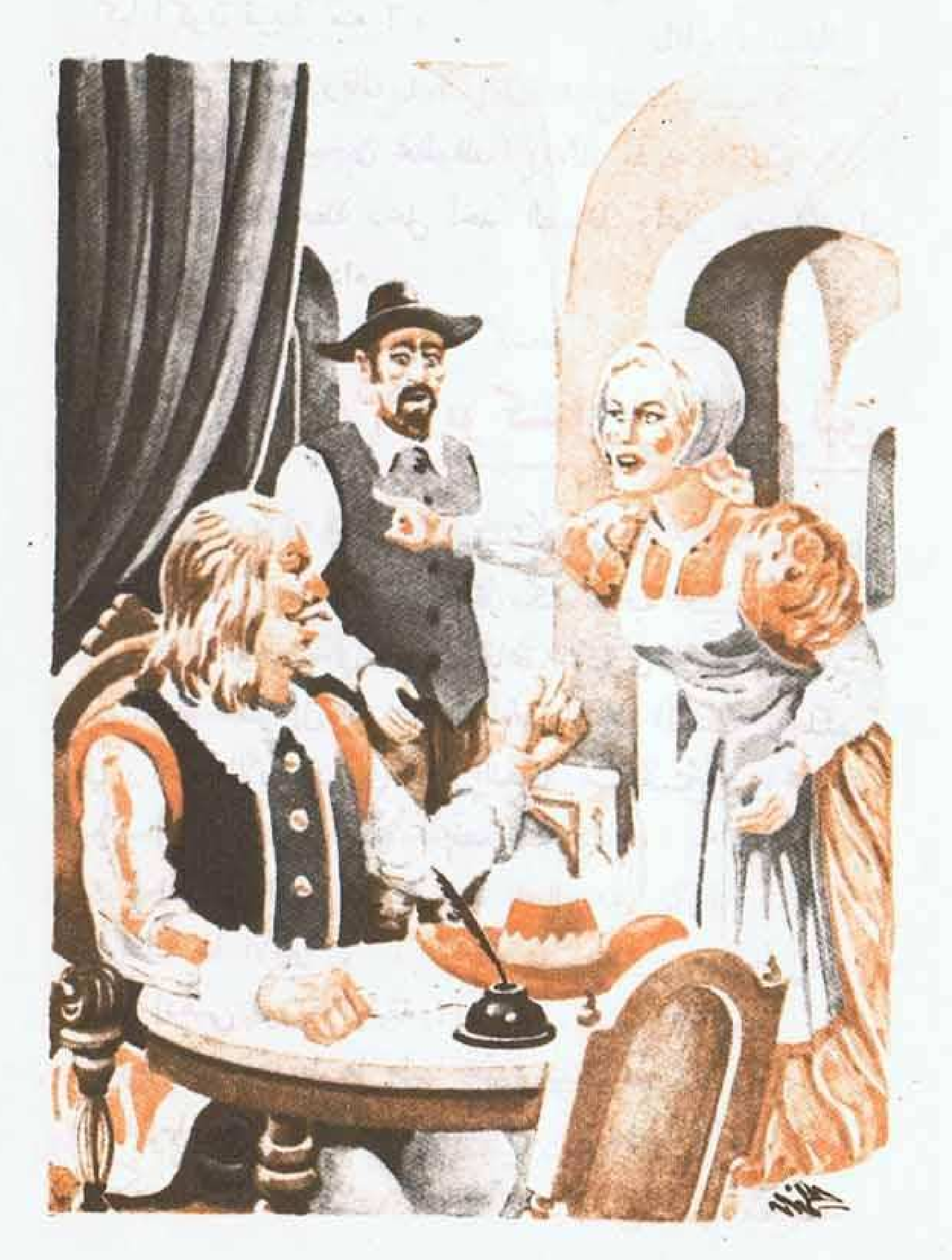
— « ومن الذي استنبتها إذن ؟ »

— « سجين مسكين في لوونشتين ! »

فوجه الأميرُ إليها الخطابَ قائلاً :

« في سجن لوونشتين سجناء من أخطر الناس ! .. إنهم أعداء للأمير وليم ! »

فلاحظتِ الفتاةُ أنها تعرف هذا الصوت ، ولكنّ الأميرَ الشاب كان غيرَ ظاهر تماماً في ركنِهِ المظلم ، فلم تتعرفْ



روزا تصيح : إنه هو

عليه ، وأجابته قائلة :

« كم في السجون من أبرياء ! »

— « وهل ترين هذا السجينَ كلَّ يوم ؟ »

— « نعم ، يا سيدي ! كنت أراه يومياً ! »

فصاح السيد فان سيستنس :

« يا لكِ من شقية ! »

ولكنَّ الأمير رفع رأسه وقال :

« أنتَ رئيسُ زُرّاع الزنبق ، يا سيدي ، فليقتصر حديثك على الأزهار ، ولا تتطرّقْ إلى الشؤون الأخرى ! .. إستمرّي ، أيتها الشابة ! »

فراحت الفتاة تروي قصة الزنبقة من أولها إلى آخرها . تحدثت عن البصلةِ الأولى ، والقسوةِ التي ظهرت من والدها ، ويأسِ السجين المسكين ، الذي أضرب عن الطعام ليموتَ من الجوع ، وعن فرحتهِ بولادة الزنبقة ، وهياجهِ حين سُرِقَتْ .

وبدأ السيد سيستنس يهتمّ بكلام روزا ، ويرى فيه علائمَ الصّدق .

قال لها الأمير :

« ولكنّ هذا السجين موجودٌ في لوونشتين منذ أربعةِ أشهرٍ فقط ، فهل كنتِ تعرفينهُ قبل ذلك ؟ »

— « نعم ، يا سيدي ! لقد عرفتهُ في لاهاي . وأرَدْتُ

أن ألحقَ به . فطلبتُ إلى الأمير أن ينقلَ والدي إلى لوونشتين ، كيما أكون قريبةً منه ! »

فابتسم الأمير وقال :

« يا لَهُ من سجين محظوظ ! »

وفي هذه اللحظة دخل أحدُ الضباط وأعلن عن وصول زارع الزنبقة السوداء .

٣٨ . بوكستل زارع الزنبق

وأُذِنَ لزارع الزنبق بأن يدخل ، فدخلَ إسحق بوكستل وراء رجلَيْن يحملانِ صندوقاً مكشوفاً فيه أصِيْصُ الزنبقة السوداء ، فوضعاه في وسَط القاعةِ الكبرى . وانتقلَ الأميرُ إلى القاعة فنظر إلى الصندوق ، ثم عاد إلى المكتبِ وجلَسَ في رُكنِهِ الأوّل . وفي هذه اللحظةِ سَمِعَتْ روزا صوت بوكستل ، دون أن تراه ، فصاحت :

« إنه هو ! »

فقال لها الأمير :

« إذهبي لرؤية الزنبقة ! »

وما إن وقع نظرها عليها حتى هتفت :

« إنها زنبقتي ! .. لقد عرَفْتُها ! .. آهٍ لكَ ، يا كورنيليوس المسكين ! »

وطفِقَتْ تبكي . فنهضَ الأميرُ من مكانِهِ وتوجهَ نحو الباب ، وقال :

« سيد بوكستل ! تفضل ادخل ! »

وكان وجودُ الأميرِ مفاجأةً كبرى لبوكستل ، الذي هتف :

« مولاي ! »

ورَدَّدَتْ روزا هامسةً ، كأنَّ الأمرَ اختلَطَ عليها :

« مولاي .. مولاي ! .. »

والتفت بوكستل فوجدَ روزا أمامَهُ ، فأخذَتْهُ رعدة من رأسه إلى القدم . ولاحظ الأمير ذلك وقال :

« يا لَلْعجب ! »

ولكنَّ اضطراب بوكستل ما لبِثَ أن زال .. قال الأمير :

« سيد بوكستل ! يقال إنك استنبتَّ زنبقةً سوداء ، فهل هذا صحيح ؟ »

— « نعم يا مولاي ! وقد ربَّيْتُها ! »

— « ولكنَّ هذه الفتاة تقولُ إنها هي التي ربَّتِ الزنبقة . هل تعرفها ، يا سيد بوكستل ؟ »

— « كلا ، يا مولاي ! »

— « وأنتِ ، أيتها الشابة ، هل تعرفين السيد بوكستل ؟ »

— « أنا لا أعرف رجلاً باسم السيد بوكستل ، فالذي أعرِفُهُ يُدْعَى السيد يعقوب ! »

— « ماذا تُريدينَ أن تقولي ؟ .. لم أعرِفْ بالضبط ما تعنين ! »

— «إن هذا السيدَ كان يُطلق على نفسه في لوونشتين اسم السيد يعقوب ! »

فسارع بوكستل إلى القول :

« هذه الفتاة كاذبةٌ ، يا مولاي ! »

— « ألم تذهب قط إلى لوونشتين ؟ »

فترددَ بوكستل لحظةً قبل أن يجيب :

« لقد كنت في لوونشتين ، ولكني لم أسرِقِ الزنبقة ! »

فصاحت روزا :

« بل سَرَقْتَها من حُجْرتي ! »

— « كلا ! »

— « لقد هيأتُ الأرضَ في البستان ، وقلّبتُ تربتها ، وكنتَ ، أنت ، تتابعُ ما أفعل .. فتظاهرتُ بأنني أغرس البصلةَ كما أكشفَ أمرك وأزدادَ يقيناً ، وكنت أنتَ مختبئاً وراء الأشجار . بعد ذلك غادرتُ أنا البستان ، فجئتَ أنت وبحثتَ في المكان الذي خُيّل إليكَ أنني غرستُ فيه بصلة الزنبق .. هل هذا كذب ؟ »

فلم يجب بوكستل بأيّ شيء ، ولكنه توجه إلى الأمير وقال :

— « إنني ، يا مولاي ، أزرعُ الزنابق ،منذ عشرين سنة ،

في دوردرشت . وقد استنبتُّ نوعاً جديداً منها ، أصبح معروفاً في كافة أنحاء أوربا ، حتى البرتغال . وهاك الحقيقةَ يا مولاي : إن هذه الفتاة تحاول غشك ، فهي ، بالاتفاق مع سجين خطرٍ موالٍ للفرنسيين ، تريدُ الحصولَ على المئتي ألف ذهبيةً . أنتَ عادلٌ ، يا مولاي ، وأنا مطمئنٌ إلى عدالتك ! »

فندّتْ عن روزا صيحةُ احتجاج ، فأشار إليها الأمير بأن تصمت ، وسأل بوكستل :

« ما اسم هذا السجين الموالي للفرنسيين ؟ »

— « إن هذا الرجل حُكِمَ عليه بالإعدام ، في البداية ، ولكنك ، يا مولاي خفّضت الحكمَ عليه إلى السجن المؤبّد .. إنه يدعى كورنيليوس فان بيرل ، وهو من أنصار كورنيل دي ويت ! »

فتجهّمَ وجهُ الأمير ، بينما غطّت روزا وجهَها بيديها . فاقترب منها الأميرُ ، وطلب منها أن تنظر إليه ، ثم قال لها :

« أكنت تريدين أن تكوني في جانب فان بيرل هذا ، عندما جئتِ تطلبين نقلَ والدِك إلى لوونشتين ؟ »

— « نعم ، يا مولاي ! »

فالتفت إلى بوكستل وقال له :

« أكمِلْ ! »

— « هذا كل شيء ، يا مولاي ! ... لقد جئتُ إلى لوونشتين

لتصريف بعض الشؤون الخاصة . وهناك تعرفتُ بغريفوس وأحببْتُ ابنته . وقد طلبتُ يدها ، ولكنها تمنّعت لأنني رجلٌ فقير . وارتكبت خطأً في التحدث أمامها عن مكافأة المئتي ألف، التي أعلنت عنها جمعيةُ زرّاع الأزاهير ، كما أخطأتُ في عرض الزنبقة السوداء أمامها ، وهكذا قررتْ ، هي وصديقها التآمرَ عليّ . ولما أوشكت الزنبقة السوداء أن تنشقَ أخذتْها إلى حجرتها ، وكتبتْ عنها إلى رئيس زرّاع هارلم . ولكنني استطعت ، لحسن الحظ ، أن أستعيدَ زهرتي . ولا شكّ في أنها أرَتْها إلى بعْضِ صاحباتها ، خلالَ المدّةِ التي احتفظت بها في حجرتها . ويسرني أن تكون ، يا مولاي ، قد اطّلعْتَ على كل شيء ! »

فصاحت روزا وهي تركع عند قَدَمَي الأمير :

« آه ، يا إلهي ! .. يا لَهُ من مجرم ! »

وقد بدا على الأمير أنه صدّق روايةَ بوكستل ، فقال لروزا :

« لقد تلقيتِ توجيهات سيئةً ، أيتها الفتاة . ولكنْ يلوحُ لي أنكِ بنتٌ طيبة ، لهذا سيتناولُ العقابُ صديقكِ وحدَه ! »

فقالت روزا في ضراعة :

« مولاي ! مولاي ! إن كورنيليوس لم يرتكبْ قطّ أيّ ذنب . وقد أُدخِلَ السجنَ ظلماً . فهو لم يَعْمَلْ لحساب آل ويت . »

— « لقد أخفى عنده الرسائلَ المتبادلةَ بين الأخويْن دي ويت والحكومةِ الفرنسية . وقد اكتُشِفَتْ هذه الرسائلُ في منزله . »

« إن ما عُثِرَ عليه في منزله هو عبارة عن صُرّة كانت تَضُمّ الرسائلَ ولا يعلم ، هو ، ما فيها على الإطلاق ! كلا ! يا مولاي ، كلا ! إنه لم يكنْ يعرِف ! .. ليتك تعرِفُ كورنيليوس ، يا مولاي ! »

فصاح بوكستل :

« ومن يكونُ كورنيليوس هذا غيرَ عميلٍ للفرنسيين ؟ ! إنه مَدِيْنٌ بالحياةِ إلى مولانا الأمير ، فلولاه لكان الآنَ في عِداد الأموات ! »

فقال له الأمير :

« أسكُتْ ! إن هذه الشؤون لا تخصّ زارعي هارلم ! .. سيد بوكستل ! ستأخذُ العدالةُ مجراها ، وسنُنْصِفُك ! »

فحيّا بوكستل الأميرَ وشكره ، وأقبل السيد فان سيستنس يهنىء بوكستل ويصافحُهُ بحرارة .

٣٩ . لماذا تعلمت روزا

بعد هذا التفتَ الأميرُ إلى روزا وقال لها :

« إن فان بيرل يستطيعُ أن يتآمر على حياتي بوصفهِ صديقاً

لآل دي ويت ، أما أن يَسْرِقَ فهذا شيء كثير ! »

فصاحت روزا بصوتٍ باكٍ :

« يَسرِق ؟ ! يَسرق ؟ ! كورنيليوس يَسرِق ؟ ! بحقّكَ لا تَقُلْ هذا ، يا مولاي ! لو سَمِعَ هذه التهمةَ لمات على الفور ! .. صحيحٌ أن سرِقَةً قد حدثت ، ولكنْ ها هوَ السارق ! »

وأشارت بإصبعها إلى بوكستل ، فردّ هذا قائلاً :

« قدّمي برهاناً على هذا ! »

فاستدارتْ نحوَهُ ونظرَتْ في عينَيْهِ ، وقالت :

« حسناً ! سأقدّم هذا البرهان ! هل كانت الزنبقة ملكاً لك ؟ »

— « نعم ! »

— « كم بصلةً أعطت ؟ »

— « ثلاثَ بَصَلاتٍ بالطبع ! »

— « ما الذي حدثَ لها ؟ »

— « الأولى لم تنجح ، والثانيةُ أنتجت الزنبقة السوداء ! »

— « وماذا حلّ بالثالثة ؟ أين هي ؟ »

— « عندي ! »

— « أين .. أفي لوونشتين أم دُورْدْرَشت؟ »

— « في دُورْدْرَشت ! »

— « أنتَ كاذب ! »

ألقت في وجهِهِ هذه السُبّة ، ثم التفتت نحو الأمير وقالت :

« مولاي الأمير ! سأسْرُدُ عليكَ قصّةَ هذه البَصَلاتِ الثلاث . أما الأولى فقد سَحَقها والدي في حُجْرة السجن ، وهذا الرجلُ يعرِفُ تلك الواقعة ، التي غضبَ لها غضباً لا مَزِيْدَ عليه ! »

« والثانيةُ تَوَلّيْتُ أنا زرْعَها وتَرْبِيَتَها وظللْتُ أتَعَهّدُها حتى أعطَتِ الزنبقة السّوداء .

« وأما الثالثةُ فها هي ، لا تزالُ في الورَقةِ التي لَفّها بها كورنيليوس مع اختَيْها يَوْمَ ألقِيَ القبضُ عليه ! .. خُذْ أنظر ، يا مولاي ! »

قالت هذا وأخرجت البَصَلَةَ من الورقة ، وقدمتها إلى الأمير . فتناولها الأميرُ وراح يَفْحَصُها بدقة واهتمام . وبنفس الاهتمامِ راحَتْ روزا تنظر إلى الورقةِ التي بقِيَتْ في يدها ، والتي لَفَتَتَ نظرَها للمرة الأولى . وفجأةً برقت عينا روزا وصاحت وهي تمدّ يدها بالورقة إلى الأمير :

« مولاي ! مولاي ! إقرأ .. إقرأ ! »

فأعطى الأميرُ البَصَلَةَ إلى الرئيس وأخذ الورقةَ من روزا وراحَ يقرأها بتمعّن . وارتجفت شفتاه ويداه ، واكفهرّتْ جبْهتُهُ : لقد أعطَتْهُ روزا الورقةَ الأولى من الكتاب المقدّس ، التي كتب عليها كورنيل دي ويت إلى كورنيليوس فان بيرل كي يُحرق الأوراق التي أودعها عنده ، وقد جاء

فيها قوله :

« ابني العزيز .

« لقد أعطيتك صُرّةً في شهر كانون الثاني الماضي . لا تَفتَحها ولا تحاوِلْ أن تقرأ الرسائل التي في داخلها ، بل أحرِقْها .. أحرِقْ كلَّ شيء ، وبذلك تكون قد أنقذت جان وكورنيل . أحبّني دائماً .

كورنيل دو ويت ٢٠ آب عام ١٦٧٢

لقد كانت تلك الرسالةُ برهاناً ساطعاً على أن كورنيليوس فان بيرل قد اتُّهِم زوراً وحُكِمَ عليه ظلماً ، فهذا الرجل لم يهتمّ إلا بالأزهار وحدها ، والزنبقة السوداء هي بالفعل وَليدُه . والتقتْ عينا روزا بعينَيْ الأمير ، وكانت نظرة الفتاة تعني : « هل تأكّدتَ الآن ؟ » ، أما نظرةُ الأمير فقد أرادَ بها أن يقولَ لروزا : « أسكتي وانتظري ! »

ومرّ الأميرُ بيدِه على جبهته ، وراح يطوي الورقةَ بتمهّل .. ومن يدري ؟ لعله كان في تلك اللحظة يشعرُ بالندم لأنّهُ حمَلَ الجماهيرَ على قتلِ جان وكورنيل دي ويت ! .. وبعد فترة من الصمت ، قال :

« إذهَبْ ، يا سيد بوكستل ! .. لقد وعدتك بأنْ تأخُذَ العدالةُ مجراها ! »

ثم التفتَ إلى الرئيس وأصدرَ إليه هذا الأمر :

« إحتفِظْ عندك ، يا عزيزي السيد سيستنس ، بهذه الفتاة

وبالزنبقة . إلى اللقاء ! »

وعاد بوكستل إلى فندق «الزهرة البيضاء» ، وهو مشغولُ الأفكار . كان يتساءل : ما هذه الورقة ؟ لقد طواها الأمير ووضعَها في جيبِه بكل عناية .. ماذا يعني كل ذلك ؟

أما روزا فقد اقتربت من الزنبقة وقبّلَتْها ، وهتفت باسم كورنيليوس الذي علّمها القراءةَ والكتابة .

٤٠ . الحكم بالاعدام على كورنيليوس

في لوونشتين كان غريفوس في غايةِ القلقِ والغضب .. كان يقولُ لنفسه : « إن ابنتي الوحيدة روزا قد غادرتِ المنزلَ بسبب فان بيرل . وكانت تريدُ أن تأخذَ مفاتيحي لإطلاق سَراحِ هذا السجين الخطِر . ولو حدَثَ هذا لطُرِدْتُ من وظيفتي ، ولكان من المحتمَل أن يَصْدُرَ حكمٌ في حقي . »

كان في الماضي لا يُحبّ كورنيليوس ، ولكنّه بدأ الآنَ يحملُ له الكرهَ الشديد ، ويوجّهُ إليه صنوفَ الأذى والإذلال .

أما كورنيليوس فكان يتحمّلُ الضربَ دون أن يُحرِّك ساكناً . ويَغُضّ الطرْف عن رداءة الطعامِ وقذارةِ الأطباقِ التي يُحمَل فيها . لقد تولاّه ما يُشبهُ الذهولَ ، لانقطاع روزا عنه . كان يُخيَّلُ إليه أن والدَها المجنونَ يضرِبُها ،

هي أيضاً ، ويتساءلُ إن كان سيراها مرةً أخرى ، أو يتلقى منها رسالة .. ولكن من الذي سيحملُ الرسالة إليه ؟ .. صحيحٌ أن الحمائم ما زالت هناك ، ولكن هل في إمكانها أن تؤدّي هذه المهمّة ؟ وحتى لو أراد هو أن يكتبَ إليها ، ليشرحَ لها ما يكابدُه من الشوق والألم من جرّاء فراقها ، فمن أين له القلمُ والورق ؟ إذن فما عليه إلا أن يهرب ! .. تلك هي الوسيلةُ الوحيدةُ للخلاصِ من كلّ ذلك ! .. ولكن .. هل يستطيع الهربَ ووراء غريفوس ذلك العددُ من الجنود ؟ ! .. وكيف يتخطّى تلك الأبوابَ الحديديةَ الضخمة .

في اليوم الثالثِ لسرقةِ زهرتِه ، كان كورنيليوس يجلسُ مكتئباً ، ويدندنُ ، ببطء، وبصوتٍ حزينٍ أغنيةَ الزنابق التي تقول :

« نحن بنات الماء والهواء .

« بناتِ الأرض والسماء .

« سماء هولندا ، موطن العطاء ! »

في تلك اللحظة دخل عليه غريفوس ، وفي يده عصا . ويبدو أن كورنيليوس لم يرَه ، وهو في ذلك الشرود . فضربه السجّان ، فما كان من كورنيليوس إلا أن قبض على العصا وانتزعها منه فقال غريفوس :

« سأمنعُ عنك الأكلَ نهائياً ! »

— « إن الله كفيلٌ بإعانتي على التحمّل ! »

وكانت رائحةُ الكحول تفوحُ من السجان ، الذي يلوحُ أنه أفرط في الشراب فبدتْ عيناه كعيون المجانين .. قال بصوت مخيف :

« أعِدْ إليّ روزا ! »

— « ابنتك ؟ »

— « نعم ! روزا رحلت ، وكل هذا بسببكَ أنت ! .. قل أين هي ؟ »

فصاح كورنيليوس وقد صعقَهُ الخبر :

« روزا غيرُ موجودة في لوونشتين ؟ ! »

— « أتتجاهل؟ .. أعِدْها إليّ ! .. ألا تريدُ أن تتكلم ؟! .. حسناً .. سأعرفُ كيف أجبركَ على الكلام ! »

هنالك أخرج من جيبه خنجراً وانقضّ على السجين يريد أن يطعنَه . وتفادى كورنيليوس الطعنةَ ، وليس بينه وبين الخنجر سوى أصابع ، ودار حولَ المنضدة بخفّة ، وفي اللحظة التي كان يوشِك فيها غريفوس أن يرشُقَه بالخنجر ، تمكّن من ضربه بالعصا على يده ، فسقطَ الخنجرُ على الأرض ، وسُرعانَ ما وضع فان بيرل قدمَهُ عليه .

وراح غريفوس ، عندها ، يكيلُ له اللكماتِ تباعاً ويجيبه كورنيليوس بالعصا . وعلى أثر هذه الضجة هُرِعَ عددٌ من الجنود ، فأمسكوا بالسجين وقيّدوه ، ثم عقدوا محكمةً

منهم وحكموا عليه بالإعدام . وحددوا وقت التنفيذ في مساء نفسِ اليوم : ذلك كان هو القانون المُتّبع في لوونشتين !

قال كورنيليوس ، الذي سئم نهائياً تلك الحياة :

« شكراً لكم يا سادة ! »

في هذا الوقت قدم ضابط من الخارج وسأل :

« هل هذه هي الحجرة رقم ١١ ؟ »

فأجاب السجّان :

« نعم ، يا حضرة النقيب ! »

— « أين السيد كورنيليوس فان بيرل ؟ » .

فردّ عليه كورنيليوس دهشاً :

« هأنذا ، يا سيدي ! »

— « تعال ! إتبعني ! »

قال فان بيرل :

« أوه ! أوه ! .. يبدو أن العمل يتم بسرعة في لوونشتين ! .. كنت أتصوّرُ أنه لا يزال أمامي عدةُ ساعات ! ... »

ثم نهض وسارَ أمام الضابط رافعَ الرأس ، مستعداً لتلقّي أيّ نوع من العذاب بصلابة كورنيل دي ويت . ومرّ في خاطره غريفوس فقال في نفسه : « لا بُدّ أنه يشعر بأنه قام بواجبه على أفضل الوجوه ، فهو راضٍ عن تصرفه ، دون شك ، سعيدٌ بهذه النتيجة التي وصل إليها . »

ولكن .. روزا ؟ .. أين روزا ؟ ! .. أيموت هو دون

أن يرى وجهها المُشرِقَ الصَّبيح ؟ ! .. دون أن يتزوّد منها بنظرة .. بابتسامة .. بقُبْلةِ وداع ؟ !

والزنبقة السوداء الكبرى؟! .. أيغادرُ هذه الدنيا قبل أن يعلمَ عنها أيّ شيء .. قبل أن يعرف مكانها ، كما تتجهَ أنظارُهُ نحوها من وراء العالم الآخر ؟ !

ووصل كورنيليوس إلى الساحة ، دون أن تقعَ عينُهُ لا على روزا ولا على غريفوس . وجالَ بعينَيْه ليعرفَ أين سيضعُ رأسَهُ ، ليفصَل عن جسَدِه . ولكنه لم يرَ أي منصّة ، كما في المرة الأولى . وكانت الساحةُ خاليةً ، ليس فيها أيّ من الفضوليّين، الذين يتسلّوْن بمآسي الناسِ كأنها مسرحيات .

وفجأةً جاء غريفوس ، وألقى عليه نظرةَ حقدٍ لاهبةً ، من عينَيْه الخبيثتَيْن ، اللتين تُشبهان عيونَ القطط . ثم راح يكيلُ له الشتائمَ دون حساب . فقال كورنيليوس للضابط الذي يقوده :

« أوَ هذا ضروريّ في مثل هذه اللحظة ؟ »

فضحك النقيب وأجابه قائلاً :

« قيل إنك ضربْتَهُ ! »

— « كنت في موقفِ الدفاعِ عن نفسي، ولم يكن في وسعي أن أفعلَ غيرَ ما فعلت ! »

— « دعه يتكلم ! فليس هذا بالشيء المهم الآن ! »

فقال كورنيليوس في نفسه :

« إن هذا الضابطَ قليلُ التهذيب ! »

ثم رفع صوته مسائلاً :

« والآن ماذا أنت فاعلٌ بي ؟ »

فأشارَ الضابط إلى عربة بأربعةِ خيول وقال له :

« إصعَدْ إلى هذه العربة ! »

فأيقنَ كورنيليوس أن عمليةَ إعدامِه ستتمّ في مكان آخر ، وقال لنفسهِ : « لعلّهم يريدون أن يذهبوا بي إلى دُورْدْرَشت ، ليُعدِموني هناك ، حتى يكون موتي أمثولة ! »

وسارتِ العربةُ طوالَ اليوم ، وخلّفَتْ وراءها دُورْدْرَشت ، ثم اجتازت مدينة روتردام ، و « دَلْف » من بَعْدِها ، وما أقبلت الساعةُ الخامسةُ حتى كانت على نحو ثمانين كيلومتراً من دُورْدْرَشت .

وكان كورنيليوس يُلْقي مختلِفَ الأسئلةِ على الضابط ، أثناء الطريق ، ولكن هذا لا يجيبه . فقال في نفسه : « لقد كان غريفوس يكلّمني على الأقل .. أما هذا ... »

وقضى الليلَ في العربة . وعندما أصبح الصباحُ رأى بحرَ الشمال عن يساره ، وبحر هارلم عن يمينه ، ولاحظ أنه تجاوز مدينة « لايد » .

وبعد ثلاث ساعات دخلت العربة إلى مدينة هارلم .

٤١ . رجل قاسٍ يتلطف

ظلت روزا طولَ النهار في دار الرئيس ، بالقرب من زنبقتها . فلمّا كان المساءُ دعاها الأميرِ وليم أوف أورنج إليه . فلما دخلت عليه وجدَتْه أمامَ مكتبهِ مُنْهَمِكاً في الكتابة ، وعند قدمَيْه يرقد كلب كبير .

ولما رآها الأمير ، وضع ريشتَهُ على المكتب ، وقال لها :

« تعالَيْ ! إجلسي هنا أمامي ، ولنتحدّثْ معاً ! .. تقولين إن والدكِ في لوونشتين ؟ »

— « نعم ، يا مولاي ! »

— « خبّريني .. يبدو لي أنكِ لا تحبّينَ أباك ؟ ! »

— « هذا صحيح ، يا مولاي ، فأنا لا أحبّهُ كما ينبغي لبنتٍ أن تحب أباها ! »

— « من المُسْتَقْبَح ألاّ يُحِبَّ المرء أباه ، ولكنَّ من المستحسن ألاّ يكذّب على أميره ! »

فخفضت روزا بَصَرَها ، ولم تجب . فاستطردَ الأمير قائلاً :

« وما السبب الذي يَجْعَلُكِ تنقمينَ على والدك ؟ »

— « إن والدي يضربُ السجناء ! »

— « أهو يَضْرِبُ الجميع ؟ »

— « الجميع ، والسيد فان بيرل بصفة خاصة ! »

— « إن السيد فان بيرل مؤيد لآل دي ويت .. إنه رجل مجرم ! »

— « إنني أحبه ، يا مولاي ! »

— « وهل مضى على ذلك زمنٌ طويل ؟ »

— « لقد أحببتُهُ من يوم أن رأيتُهُ ! »

— « ومتى رأيتِهِ للمرة الأولى ؟ »

— « في اليوم التالي لمقتل جان وكورنيل دي ويت على ذلك الوجهِ الوحشيّ ! »

وزمّ الأميرُ شفتيْهِ وخفّضَ بصَرَه . ألم يَكُنْ هو الذي حرّض على قتلهما .. ألم يأمرْ بإغلاقِ أبواب المدينةِ حتى لا يتمكنا من الهرب ؟ ! ... لقد كان يريدُ أن يصبحَ ملكاً ! .. ولكنْ أنّى لروزا أن تعلَمَ ذلك ؟

وظلّ الأميرُ صامتاً أكثرَ من دقيقة ، ثم استأنفَ الكلامَ قائلاً :

« هذا الرجلُ سيعيشُ ويموتُ في السجن فما الفائدةُ التي تجْنينَها من حبه ؟ »

— « سأعينُهُ على الحياة والموت ! »

— « أو يُسْعِدُكِ أن تكوني زوجةً لسجين ؟ »

— « للسّجين فان بيرل ؟ نعم .. وسأكونُ أسعدَ

الزوجات ! »

— « وما هو الأملُ الذي يداعبُ خيالَكِ ؟ »

فنظرت روزا في عيني الأمير ، كأنها تبحثُ فيهما عن قلبِهِ المظلم . وأجاب عنها الأميرُ بقوله :

« أنتِ تأملين فيّ أنا ! »

— « أجل ، يا مولاي ! »

فطوى الأمير الخطاب الذي كان أمامه ، ثم دعا إليه أحدَ الضباط ، وقال له :

« سيد فان دكن ! إحملْ هذا الخطابَ إلى لوونشتين ، ومتى وصلتَ إلى هناك افتَحْهُ ، ونفّذْ ما فيه من أوامر ! »

فأدّى الضابط التحيةَ وخرجَ . وعاد الأمير يقول :

« هذا الأحد سيكونُ عيدَ الزنبق ، يا آنسة ! ويومُ الأحد هو بَعْدَ غد ، فخذي هذه المئة قطعة من الذهب واشتري لنفسكِ ملابسَ جميلة ، إذ سيكون لكِ ، مساءَ ذلك اليوم ، عيدٌ عظيم ! »

— « وما هي الملابسُ التي يريدُ مني مولاي أن أرتديها ؟ »

— « ملابس العرائس ، فهي تناسبك تماماً ! »

٤٢ . هارلم

هارلم مدينةٌ جميلة ، تقِفُ عند أسوارِها رياحُ البحرِ ، وتَغْرَقُ في خُضْرةِ الأشجارِ الوارفةِ الظلال . أما الأزهارُ

فتنتشرُ في كل ناحية منها : إنها مدينةُ الزهر والجمال ، فأنى ذهبْتَ تجد الزهور من كل نوع ولون . وأهمُّ زهرةٍ فيها هي الزنبقة . فللزنبق شأنٌ خاص في هذه المدينة ، ولهذا جعل له أهلُها عيداً ، هو أعزّ الأعياد عندَهُم وأقربُها إلى نفوسهم . في هذا العيد ، الذي يقع في الخامسَ عشر من شهر أيار ، ترتدي المدينةُ حُلّةً قشيبة ، ويخرج الكبارُ والصغارُ بالملابس الجديدةِ ليفرحوا ويمرحوا ويمجّدوا الجمالَ في زهرات الزنبق .

ولقد كان الخامس عشر من أيار عام ١٦٧٣ يوماً مشهوداً ، استعدّ له أهل المدينة قبلَ حلولِهِ بمدة طويلة . وقد أُعِدّتْ ساحةُ المدينة الكبرى ليجريَ فيها الاحتفالُ المَهيبُ ، الذي سيشهدُهُ الأمير وليم أوف أورنج ، ليقدّم بيده تلك الجائزةَ الضخمة ، جائزةَ المئتي ألف ذهبية ، إلى مربي الزنبقة السوداء .

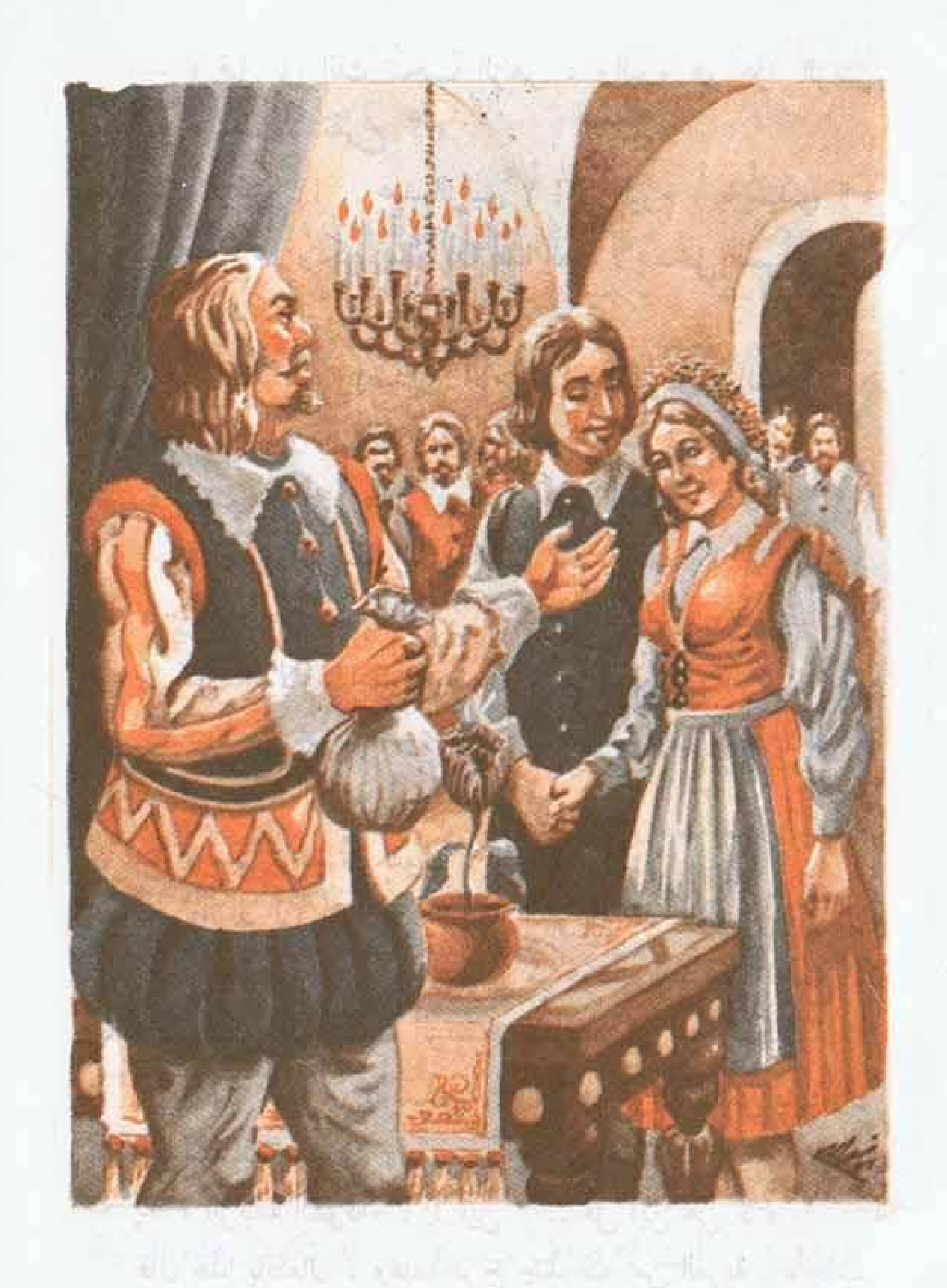
في ذلك اليوم ارتدى السيد فان سيستنس أغلى ما عنده من ملابس ، حتى أصبح أكثرَ شبهاً ، مما قبل ، بزهرتِهِ المفضّلة : الزنبقة . وقد تقدمَ الموكبَ ، وسار وراءه زُرّاعُ الزنبق والقضاةُ والضباط ، وأصحابُ المراكز الرفيعة في المدينة . وفي وسط هذا الموكب كانت الزنبقةُ السوداء محمولةً فوق مِنْضَدَةٍ عليها غطاء أبيض . وكان أهلُ المدينة ، الذين اصطفّوا على جانبيْ الطريق ينظرونَ إليها والفرحةُ تلتمعُ

في عيونهم . لقد كانوا في منتهى السعادة لأن الأمير وليم أوف أورنج سيكرّم مدينتهم بشهودِهِ الاحتفالَ ، وتَوَلّيه تسليم الجائزةِ إلى صاحب الزنبقة السوداء .

ولكنْ من هو صاحب الزنبقة ؟ من الذي سيتلقى الجائزة ؟ إنه بالطبع إسحق بوكستل ، الذي كان يسيرُ مع الموكب وراء الزنبقة السوداء ! .. لقد ساروا وراءها طويلاً : من دُورْدْرَشت إلى سجن لاهاي ، ومن سجن لاهاي إلى سجن لوونشتين ! .. رآها تولد ، ورآها تكبر ، ورآها تتفتح . ثم استولى عليها وجاء بها إلى هنا ، إلى مدينة الزنابق .. إنه إذن صاحبُها ، وروزا عاجزةٌ عن انتزاعِ ملكيّتها منه ، عاجزةٌ عن إلصاق أيّ تهمةٍ به . الزنبقة السوداء أمامه على المِنضدة ، تحيطُ بها أجملُ فتياتِ المدينة . وكيسُ المكافأة موضوعٌ على منضدة أخرى يحملها الموكب ، وعمّا قليلٍ سينتقل هذا الكيسُ ، المليء بالذهب ، إلى يدِهِ ، هو ، إسحق بوكستل .. سيُسلّمه إياه الأمير وليم أوف أورنج بنفسه والأمير قادمٌ خلال رُبْعِ ساعة .

٤٣ . رجاء اخير

في هذا الوقت وصلت إلى الساحة عربةٌ ضخمةٌ تراكمَ عليها الغبار ، مما يدُلّ على أنها قادمةٌ من سفرٍ طويل .



الأمير يقول : أنت يا كورنيليوس أوجدت الزنبقة السوداء

وكانت تتقدّم ببطء وصعوبةٍ بسبب الزحام . ولم تكن تلك العربةُ سوى العربةِ التي يُنقلُ فيها السجينُ المسكينُ كورنيليوس فان بيرلَ وإلى جانبهِ الضابطُ الذي أخذَهُ من سجن لوونشتين .

ذلك الضابطُ الصامتُ لم يجب على أيّ سؤالٍ طرحَهُ فان بيرل ، حتى يئسَ منه هذا ، وظل ساكتاً يلوكُ أفكارَهُ طولَ الطريق . ولكنه عندما رأى ذلك الزحامَ لم يَستَطِعْ أن يقاومَ فُضُولَهُ ويسألَ الضابط :

« لماذا يتجمّع كلّ هؤلاء الناس ؟ »

— « كما ترى ، يا سيدي ! إنهم يُعَيِّدون ! »

قال كورنيليوس بنبرة حزينة :

« إذن هم في عيد ؟ ! »

ثم أضاف فجأة :

« ولكني أرى أزهاراً ! .. يا لها من أزهارٍ زاهية الألوان ! .. يا لَلشّذا المنعِش اللطيف ! »

فقال الضابطُ للحوذي :

« قف بنا قليلاً ، فالسيد يريدُ أن يشاهدَ الأزاهير ! »

قال كورنيليوس :

« شكراً لك ، يا سيدي ، على هذا اللطف البالغ ! .. ولكنّ فرحَ الناس يُحزنني اليوم .. وهذا يحدث لي للمرة الأولى في حياتي ! »

— « قيل لي إنك تُحبّ الزهر ، واليوم هو عيد الزنبق هنا ، فكيف لا تفرح ؟ »

— « الزنبق ؟! .. عيد الزنبق ؟ ! .. اليوم ، يا سيدي ؟ ؟ »

— « نعم ! ولكن يبدو أن هذا العيد لا يُدخل السرورَ على قلبك ، فلنكمِلْ طريقنا ! »

وهمّ الضابط بإصدار الأمر إلى الحوذيّ بالتحرك ، فأوقفه كورنيليوس قائلاً بصوت مضطرب :

« سيدي ! أفي هذا اليوم يقدّمون الجائزةَ الكبرى ؟ »

— « جائزة الزنبقة السّوداء .. نعم ! »

فاحتقن وَجْهُ كورنيليوس وتهدّج صوتُهُ ، وهو يقول :

« كلّ هؤلاء الناس واهمون ! .. إنهم لا يَعْرفون أنهم لن يكسبوا من مجيئهم سوى العناء .. سيُصابون بخيبة الأمل ، لأنهم لن يروا الزنبقة السوداء ! »

— « ماذا تريد أن تقول ، يا سيدي ! »

— «أريد أن أقول إن الزنبقة السوداء قد أنبتها رجلٌ لا يعرِفُهُ أحدٌ سواي .. وهو ليس موجوداً وسطَ هذا الجمع ، لهذا لا يمكن أن تكون الزنبقةُ السوداء في هذا المكان ! »

— «أنت مخطىء، يا سيدي .. إن كل هؤلاء الناس ينظرون إلى الزنبقة السوداء ! »

— « الزنبقة السوداء ؟ ! أين ؟ .. قل أين هي ؟ »

قال هذا بانفعال ، وقد أخرج جِذْعَهُ من العربة . فأجاب

الضابط :

« هناك .. على المنضدة .. ألا تراها ؟ »

— « بلى ! .. رأيتُها ! »

— « الآن ، يجب أن نواصلَ طريقَنا ! »

— « انتظر ، يا سيدي ، أرجوك ! .. دَعْني أنظرُ إليها لحظة أخرى ! .. نعم ها هي .. إنها سوداء .. كلّها سوداء .. هل هذا ممكن ؟ ! .. هل رأيتها أنت ، يا سيدي ؟ .. لا يمكن أن تكونَ هذه كلّها سوداء! .. كلا! .. هذا مستحيل! .. أنا أستطيعُ أن أعرِف .. دعني أنزل ! .. دعني أراها عن قُرب ! »

— « هل أنت مجنون ، يا سيدي ؟ ! كيف يمكنُ أن أدعكَ تنزل ؟ ! »

— « إسمح لي .. أرجوك ! »

— « أنت سجين ! »

— « نعم أنا سجين ، ولكن ثِقْ بأنني لن أهرب .. أعدُكَ بذلك .. دعني أرى الزنبقة ، وسأعود في الحال ! »

— « إن لديّ أوامر لا أستطيع مخالفتها ، يا سيدي ! »

وقام الضابط بحركةٍ كي يأمرَ بالمسير . فأوقفه كورنيليوس مرةً أخرى وقال :

« كن لطيفاً يا سيدي ! .. إن حياتي قد أشرفَتْ على النهاية ! .. أنت لا تعرفُ مُصيبتي .. قد تكونُ هذه الزنبقة

هي زنبقتي أنا .. إفْهمني ، لحظة .. كانت جميلةً فاتنة .. وقد ضاعت من يدي ، وستضيعُ الآنَ إلى الأبد ، بالنسبة إليّ ! .. أريدُ أن أراها عن كثَب .. أقتُلْني بعد ذلك ، عندَها سأموتُ مطمئناً لأنني سأكونُ قد متّعْتُ بها نظري!»

— « أسكُتْ ، أيها الشقي ، ولا تُطلْ من العربة .. ها هو الأميرُ وحولَهُ الضباط .. ستسبّبُ ليَ اللومَ ، فما كان ينبغي لي أن أتوقّف ! »

وأدخل كورنيليوس رأسَهُ ، وتقدّم الأميرُ متمهلاً . ولكن فان بيرل لم يَستَطِعْ أن يُمْسِكَ نفسَهُ عن الإطلال مرةً أخرى للتحدّث إلى الأمير عن الزنبقة . فَشَدّهُ الضابطُ بكلّ قوّتِهِ إلى الداخل . ولكنّهُ لم يستطِعْ أن يمنَعَهُ من الاسترسالِ في الكلام ، ثم أفلَتَ منهُ ونزَلَ من العربة . فسأل الأمير :

« ماذا يجري هنا ؟ »

فأجاب الضابط :

« هذا هو الأسير ، يا مولاي .. لقد أمَرْتَني أنْ آتيَ به من لوونشتين إلى هارلم ، وهأنذا قد عُدْتُ به ! »

— « وماذا يريد ؟ »

— « يريد أن يتوقف هنا ! »

وأكمل كورنيليوس قائلاً :

« لأشاهدَ الزنبقة السوداء ، يا مولاي .. وبعدها سأموتُ

راضياً ، وسأقولُ لك : « شكراً ! شكراً ! يا مولاي ! » . سأطْمَئِنّ إلى أنني لم أتعب عبثاً ، وأنني نجحتُ في أن أضيفَ قليلاً من الجمال إلى هذا العالم ! »

فقال الأميرُ للضباط :

« قيل لي إن هذا الرجلَ حاول أن يَقتُلَ سَجّانَهُ في لوونشتين ! »

فخفض كورنيليوس رأسه ، ولم يحاولِ الدفاعَ عن نفسه . ولكنه لم يصدّق أذنيه عندما سمعَ الأميرَ يقول للضابط :

« إسمحْ لهذا السجين بالنزول ، فالزنبقةُ السوداءُ بالغةُ الروعة ، وفي إمكانهِ أن يراها مرةً ، على الأقل ! »

وارتجف كورنيليوس من الفرح ، وقال للأمير :

« شكراً لكَ ، يا مولاي ، ألفَ شكر ! »

وحاول أن يَسجُدَ أمامَ الأمير ، ولكن الضابط منَعَه ، وشدّه من ذراعه .

وتابع الأميرُ طريقَهُ ، فيما كان الموسيقيونَ يعزفونَ والشعبُ يهتِفُ سعيداً مجبوراً .

واعتلى الأميرُ المنصّةَ ، وجلسَ على مقعَدٍ مُذهّب ، أعلى من المقاعد الأخرى ، بين الزنبقة السوداء وبوكستل

٤٤ . الزنبقة والوردة

ونهض الأميرُ واقفاً ، فتوقّف الموسيقيون عن العزف . وكان عن يساره بوكستل . أما عن يمينه ، ووراء فتيات هارلم فكانت تقفُ فتاةٌ طويلةٌ رائعةُ الجمال ترتدي ثوباً فاخراً من الصوف الأحمر المطرّز بخيوط الفضة . وكانت بينها وبين الأمير الزنبقة السوداء وبجانبها كيسُ القطع الذهبية . وفي الصفّ الأخير كان يقف كورنيليوس ومعه الضابط . وكان بوكستل لا ينفكّ ينظرُ إلى الزنبقة ، وكيس المال ، في حين أن كورنيليوس كان ينظر إلى التوليبة ، وروزا تنظر إليه .

وبدأ الأمير بالكلام ، فقال :

« إنكم تعلمونَ جميعاً لأيِّ غرضٍ قد تجمّعنا في هذا المكان ! .. إن تاريخ الزنبقة سيُكْتَبُ في سِجِلِّ المدينة الكبير ! ... والآن ليتقدّمْ زارع هذه الزنبقة . »

فتقدّم بوكستل ، وأتى كورنيليوس بحركة كأنّهُ يريد أن يتقدّم . وطلب أحد الضباط من روزا أن تقترب ، فصاح كلٌّ من كورنيليوس وبوكستل بصوتٍ واحد :

« روزا .. روزا . ! »

فسألها الأمير قائلاً :

« هل هذه الزنبقة هي لك أيتها الفتاة ؟ »

فأجابت :

« نعم ، يا مولاي ! »

وقد صرخ الناسُ من الفرحة . لأن روزا كانت فاتنة .

فقال كورنيليوس بينه وبين نفسه :

« إذن كذبتْ عليّ عندما قالت إن الزنبقة قد سُرِقَتْ ! .. لقد حملتْها إلى هنا ، وهذا هو سببُ تغيّبها عن لوونشتين ! .. أتفعل روزا بي ذلك وهي أعزّ صديقةٍ لي ؟ ! »

أما بوكستل فقد قال : « لقد قُضيَ عليّ ! »

واستطرد الأميرُ قائلاً :

« إن الزنبقة السوداء هذه تدعى « روزا — بيرل » .والسيد كورنيليوس فان بيرل هو زارعُ أزهارٍ من دُوَرْدْرَشت . واليومَ سيجري الاحتفالُ بزفافِهِ على الآنسة روزا غريفوس . »

وجرى كورنيليوس نحوَ روزا ومدّ لها يَدَهُ ، فوضعَ الأميرُ يَدَها في يد خطيبها . وفي نفس تلك اللحظةِ سُمِعَ صوت جسمٍ يَقَعُ على الأرض : كان ذلك هو إسحق بوكستل وقد انهارَ في مكانه . فحاولوا رَفْعَهُ ، ولكنه كان قد فارقَ الحياة .

هذا الحادثُ لم يؤدّ إلى وقْفِ المهرجان . بل إن الأميرَ ورئيسَ جمعيةِ الزرّاع لم يُعيراه أيّ التفات . كورنيليوس وَحْدَهُ هو الذي تألّم ، لأنه عرف في الشخص الذي مات جارَهُ في دوردرشت ، الذي كان يَظُنُّ أنه صديقُه

وعاد الموسيقيونَ إلى العزفِ وتوجّهَ الزرّاعُ والقضاةُ والضباطُ والفتياتُ وأبناءُ الشعب إلى مقرّ البلدية . أما روزا وكورنيليوس فقد كانا يسيران بين الجمْع ويداهما متشابكتان .
ولما وصلوا إلى المجلس البلديّ عاد الأميرُ يتحدث من جديد .
قال موجّهاً كلامَهُ إلى كورنيليوس وروزا :

« أنتَ ، يا كورنيليوس ، أوجدْتَ الزنبقةَ السوداء ، ولكنك أنت ، يا روزا ، التي أنبتّها وجعلْتِها تُزْهِر ، لهذا فأنا أعطيكما المئتي ألفِ ذهبية من أجل حبّكما وجهادكما .

« وأنتَ مدينٌ لروزا ، يا سيد كورنيليوس ، بأكثرَ من هذا . فهي التي قدّمتْ لنا الدّليلَ على براءتك . لقد حُكِمَ عليكَ ظلماً . وها هوَ الدليل ، خُذْ أقرأهُ ! »

ومدّ الأميرُ يدَهُ بالرسالة التي كان كورنيل دي ويت قد كتبَها على الورقةِ الأولى من الكتاب المقدّس وأرسلَها إلى كورنيليوس ، ولكنّ هذا لم يقرأها .

فأخذ فان بيرل الورقة ، وراح يقرأها . هنالكَ انحدرتَ من عينيْهِ دمعتان ، وهو يذْكرُ صديقَهُ وصديق والدِهِ كورنيل دي ويت .

وعاد الأمير يقول :

« أنت حر ، يا سيد كورنيليوس فان بيرل ، وستعادُ إليك جميع ممتلكاتك . لقد سمّاك والدك كورنيليوس حباً بصديقه كورنيل دي، ويت . في استطاعتك أن تظلّ محتفظاً بهذا الاسم . إن السيدين دي ويت قد ارتكبَ في حقهما خطأٌ جسيم ، وإن في موتهما لخسارةً كبرى ، فلقد كانا من أخلصِ العاملين من أجل هولندا .

« إنك ، يا سيد فان بيرل ، أسعدُ مني ! فإنّ عظمةَ هولندا لا ترتكزُ على الحروب ، بل على حُبّها للأزاهير ! »

بعد هذا الخطاب ركب الأميرُ عربتَهُ ومضى .

وفي نفس اليوم ذهب كورنيليوس وعروستُهُ إلى دُورْدْرَشت . وكم كانت فرحةُ أهلِ المدينةِ بهما . ولم يبقَ غاضباً سوى غريفوس ، الذي رفضَ أن يأتيَ لرؤية العروسَيْن . إنه لم ينْسَ ضرَبات العصا ، التي كالَها لهُ السجين رقم ١١ ، في آخرِ يوم . كان يقول :

« إنها إحدى وأربعونَ ضربة ! .. أجل إحدى وأربعون ! .. لقد عددْتُها ، ولا أزال أحسّ بها ! »

على أنه عفا وصفحَ آخرَ الأمر ، وأصبحَ من أشدّ حرّاس الزهور قسْوةً ، بعد أن حرَسَ السجناء تلك السنينَ الطوال . وقد أصبحت جميعُ القططِ والجرذانِ تخشاه وتهرب بعيداً إذ تشمّ رائحته ، حتى إن سطْوتَهُ قد بلغت حدودَ ألمانيا .

وعُرض منزل إسحق بوكستل للبيع ، فاشتراه كورنيليوس . ولكن غريفوس كان كلما دخله تولاّه الغضب ، لأنه لم ينسَ أن صاحبه قد خدعَهُ وضحكَ عليه .

وكانت روزا تزدادُ جمالاً ، يوماً بعد يوم ، وتزدادُ علماً

وثقافة . إنها لا تربي الأزاهرَ وحَسْبُ . بل تربي طفلين جميلين ، هما كورنيليوس الصغير وروزا الصغيرة . إنهما لا يُتعبانها بقدر ما أتعبتها تربيةُ الزنبقة السوداء .

أما فان بيرل فهو ما يزال على حبه لزوجتِه وللزهر ، وتكريسِ حياتِه لهما.. إنه يهتمّ اهتماماً بالغاً بسعادة زوجته ، كما يهتمّ بالعناية بأزاهيره .

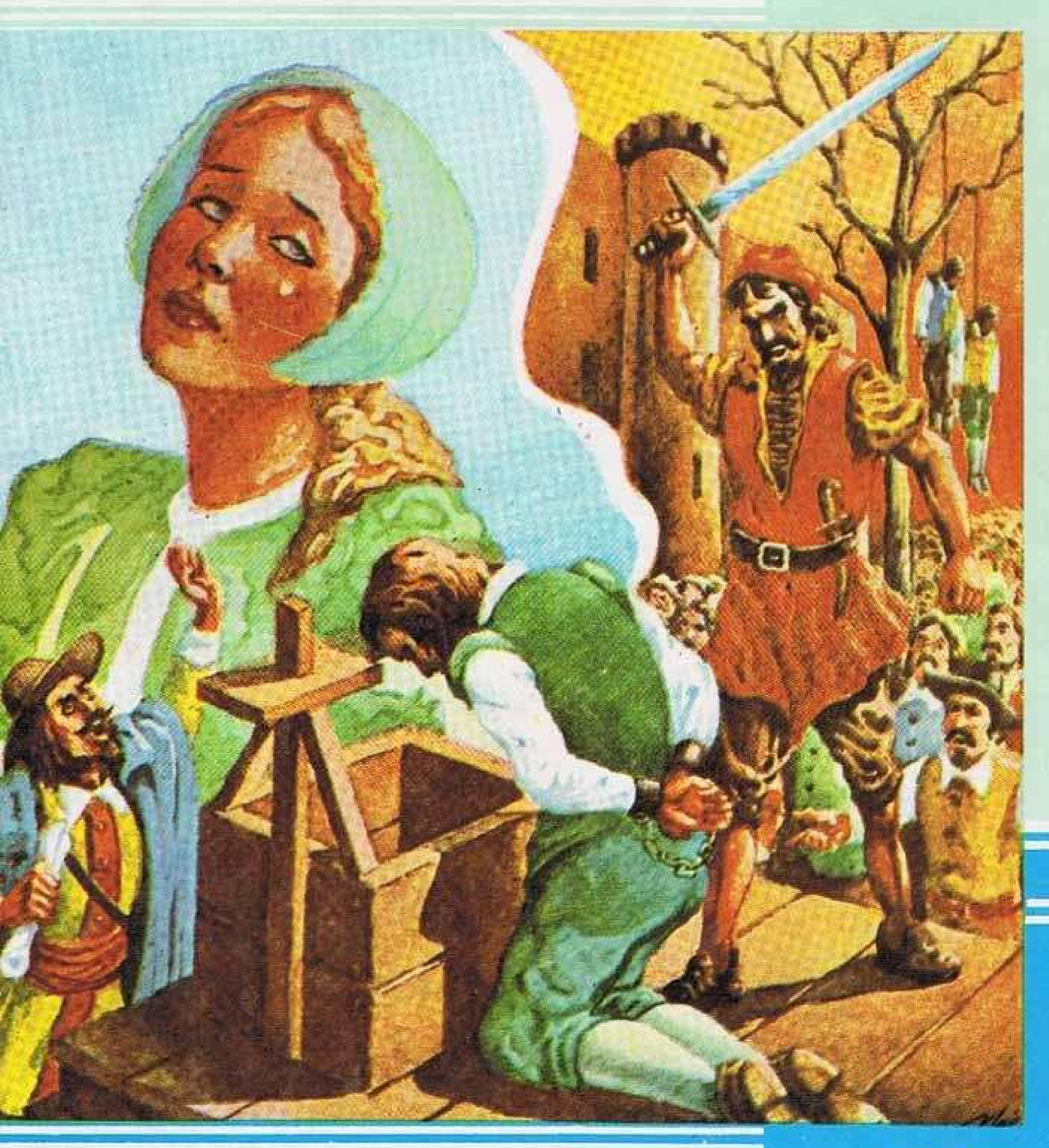
وقد وضع أولَ ورقتين من الكتاب المقدّس ، الذي كان يملكه كورنيل دي ويت، في إطارٍ علّقَهُ في قاعة المنزل الكبرى . وكانتِ الصفحةُ الأولى مكتوباً فيها رسالةُ كورنيل دي ويت ، التي يطلبُ إليه فيها إحراق الرسائل ، أما الصفحة الثانية ، ففيها وصيتُهُ هو لروزا بأن تتزوجَ شاباً جميلاً يحبّ الأزهار ، لقاء المكافأة التي يَهَبُها إياها . وقد كتَبَ تحت الصفحتين ، المعروضتَيْن في الإطارِ وراء الزجاج ، هذه العبارةَ :

« يَحِقّ لِلْمَرْءِ أحْياناً أن يكونَ سَعيداً في حَياتِه ! »

انتهى

الزنبقة السوداء

المكتبة العالمية
للفتيان والفتيات



دار العلم للملايين
بيروت